سياسة تغريب العالم الإسلامي

طه جسام

ملخص

الثقافة الاسلامية تتعرض لغزو التغريب، لا لكي تكون غربية، بل لتهتز دعائمها، وتضعف بنيتها، ويحبط مفعولها في الامة، فما هي طبيعة هذه المواجهة؟ وما هي السبل المتبعة في هذا التغريب هذا ما يحاول الباحث ان يعالجه، من خلال استعراض مظاهر التغريب التي تمارسها دول الاستكبار العالمي تجاه العلو الاسلامي.

مافتئ الاستعمار الغربي منذ ان داست أقدامه ديار العرب والمسلمين يعمل على تغريب العالم الاسلامي في كل الميادين، وذلك بغية حرفه عن اصول عقيدته وشريعته وبغرض ان يحوله الى عالم تابع للغرب ثقافياً واجتماعياً واقتصادياً وسياسياً. ورغم ان المسلمين يمتلكون في اصل رسالتهم السماوية أسساً ثابتة وقواعد حنيفة تقوم عليها دولتهم، الا ان الاستعمار استطاع وفي غياب الوحدة الاسلامية - ان ينال من كل دولة على حدة، بل انه استطاع ان يؤثر على هذه الامة فيضرب بعضها ببعض او يدجن بعضها الاخر في شبحية الذل او يقوقع الآخرين في بلدانهم او يلوح بعصا قوته في وجه فريق رابع، وبهذا استطاع ان يحد الحدود فيما بينهم ويجزئ الاقطار ويلقي بذور الشقاق والتغريب والانحراف. فإلى أي مدى افلح في ذلك؟ ذلك هو بحثنا.

عندما ظهر الاسلام قوياً في جزيرة العرب وكان يحمل في طياته مشروعاً حضارياً متكاملاً يصلح نظاماً لكل شعوب الارض، كان ظهوره مدعاة لتساؤل ابناء إمبراطوريتي الروم وفارس عن دواعي ظهوره وفي ارض غير ذي زرع. وقد كانت عوامل نهوض المسلمين اكبر مما ظن هؤلاء اذ ان دولتهم قامت على قيم التوحيد والعلم والتقوى وحفظ كرامة الانسان والتعامل مع الشعوب بالحسنى وعدم العدوان على احد، وكان من مبادئه نقل هذه القيم الحضارية الى الشعوب التي ترزح تحت نير الاستعباد والاستغلال. وفي هذا الوقت بالذات كانت دولتا الفرس والروم قد انتهتا يومئذ الى عبادة الاباطرة عند الرومان والاكاسرة عند الفرس، وتحجمت بالقيم الانسانية لتصبح خضوعاً لملك او سجوداً للنار، وقتلاً للعقول التي وهبها الله للبشرية. ولما كان الامر كذلك كان لابد من اصطدام هؤلاء بقيم الحضارة الاسلامية من الجولة الاولى. ولذا راحوا يغيرون على اطراف الجزيرة العربية من اجل وأد هذه الدولة في مهدها. ولهذا السبب كانت اعظم خطوات رسول الله (صلى الله عليه وآله) قبيل وفاته هي تسيير جيش اسامة الى اطراف الجزيرة لملاقاة الروم. وتابع ابو بكر (رضي الله عنه) ذلك الجيش في خلافته وحسب المستشرقون ان وقوف ابي بكر (رضي الله عنه)

بوجه دولتين عظيمتين واعلانه الحرب عليهما في وقت واحد مغامرة غير مضمونة ولكنها اثمرت في عهد الخليفة عمر (رضي الله عنه) فتم القضاء على الدولتين العظيمتين في عشرة ايام. ستة ايام في معركة اليرموك وانتهت دولة الروم واربعة ايام في القادسية وانهت الفرس.

استيقاظ الغرب على عظمة المسلمين

وتنتهي اسطورة الفرس والرومان– وان كانت دولة بيزنطا قد امتدت الى ما بعد ذلك -ويسارع المسلمون الى عبور الاقطار ونشر رسالة الاسلام بدء من القرن السابع، وتقوم دولتهم في دمشق وبعدها في بلاد الاندلس، ويحدث الاحتكاك المباشر مع الغرب الذي ربما عرف شيئاً عن المسلمين وحياتهم عبر الرحلات التجارية التي كان يقوم بها المسلمون الى ديارهم.

ولكن الغرب يومئذ كان قد انتهت به المسيحية المشوهة الى مذاهب متعددة حجرت على العقول والافكار وتسلم رجال الكنيسة زعامة الناس فطمسوا معالم العلوم والحكمة حتى كان رجل الكنيسة يتحكم في الملوك وتتويجهم. وقد انتهى الامر بهولاء الى انهيار الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية مما دعا الغرب يومئذ ومن خلال الفوضى الدينية والاقتصادية الى القيام بحملات صليبية ظالمة اتخذت من الدين شعارا لها لحمل الناس على النهوض الى القتال... ومن خلال احتكاك الغرب بالمسلمين اطلعوا على مدى تقدمهم وحضارتهم في ميادين السياسة والعلوم والاقتصاد وعلوم الطبيعة والحياة، وعرفوا مدى حريتهم وعدالتهم وادركوا الفارق الكبير بين تخلفهم وهمجيتهم والاشواط الكبيرة التي قطعها المسلمون في ركب الحضارة بل انهم اطلعوا عن قرب على مدنية المسلمين ورقيهم الادبي والعلمي والاخلاقي. وعندما تم طرد الصليبيين عام ١٢٩٢ م ادرك ابناء الغرب وخاصة هؤلاء الذين انخرطوا في الحملات الصليبية من المحاربين والتجار ورجال كنيسة، ادركوا باحتكاكهم بالشرق المسلم المتحضر مدى رقيهم، فكان ان نقلوا عادات المسلمين وافكارهم وشاراتهم واساليبهم في الزراعة والتجارة وادوات الحضارة وحتى افكارهم في التسامح والحرية وكيف تتعايش بينهم المذاهب المختلفة بينما كانت الحروب دائرة بين مذاهبهم في اوربا(٢). ولما عرفوا ذلك سرعان ما سلكوا الطريق الصحيح فانخرطوا في مدارس المسلمين في الاندلس وصقلية يتعلمون على ايديهم ويترجمون علومهم ويتقنون آدابهم وصناعاتهم. وكان منهم رجال كنيسة وملوك كفريدريك الثاني وروجر الثاني، ولكن نواياهم لم تكن يومئذ سليمة اذ كانوا يخفون من النيات مالا يبدونها للمسلمين وكان يبيتون مالا يرضى من القول والفعل ويحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم - ومن ثم راحوا يطورون انفسهم بانشاء الجامعات وترجمة القرآن ونقل كنوز المسلمين

من آداب وعلوم وصناعات من جهة وراح مستشرقوهم يعملون على تغريب الاسلام والدين فراحوا يكتبون ويؤلفون ويشوهون هذا الدين بدء من قرآنه ونبيه وتاريخه ورجاله وحضارته.. كان ذلك بدء الزحف على الاسلام والمسلمين والغزو الثقافي الاسود بتسليط الاضواء على القيم الحضارية التي بنيت عليها حضارة المسلمين ليتم نسف جسورها.

وقد وافق ذلك كله عندهم ظهور عصر النهضة والخروج من بلدانهم ليسقطوا على بلدان المسلمين مستعمرين للأرض والانسان ومشوهين الدين والحضارة ومحاولين فرض نمطهم الغربي وقيمهم الآليه.

محاصرة الاسلام

إذن فمنذ اللحظة الاولى التي نقلوا فيها علوم المسلمين راحوا يرسمون الخطط لمحاصرة المسلمين في كل مكان على الرغم من أن المنصفين منهم اظهروا لهم حقيقة الاسلام وانه لا يعادي الاديان ولا يحمل الحقد على احد وهو دين العدل والتسامح واحترام الشعوب ورغم امتداح هؤلاء الدين الا أن معظم الغربيين وبقيادة رجال الكنيسة ومنذ بداية عصر النهضة راحوا يتهيئون للإطاحة بالاسلام، ثم تم التعاون الدولي يوم بدأ هؤلاء بشن حملات استعمارية لاستعمار الشعوب وكانوا يدخلون البلدان بصورة ثالوث: الجندي والتاجر والكاهن. ورغم وقوع دول العالم الثالث فريسة لهؤلاء منذ بضعة قرون والبعض الاخر في فترة ما بين الحربين العالميتين، ورغم تطور الشعوب وتغير موازين القوى والتعامل مع الشعوب وذهاب موجة الاستعمار الاولى وان هؤلاء لابد خارجون يوماً ما من تلك الدول الا انهم مازالوا يعدون الخطط لتغريب تلك الشعوب وخاصة العالم الاسلامي سياسياً وثقافياً واقتصادياً، وسنركز الحديث حول دور هذه الابعاد في طمس معالم الشخصية الاسلامية.

١. التغريب السياسي

يحسن بنا أن نشير هنا الى ظاهرة الديمقراطية والليبرالية التي تقوم عليها النظم في الدول الغربية. فنقول إن هذه الظاهرة يتعامل الغرب من خلالها وينظر بمنظورين لا منظور واحد ، فهي في بلدانهم تعني حكم الشعب نفسه بنفسه من خلال موافقة الأغلبية، الى جانب نشر العدالة والمساواة واحترام الانسان مع وجود معارضة للحزب الحاكم ، بمعنى اعطاء الشعب منتهى الحرية في اختيار من يريد ، وعلى هذا قامت حكومات الغرب ودولها ورفعت عقيرتها عالياً في مواجهة النظام الشيوعي ذي الحزب الواحد واعلنت انها تمتلك النظام الامثل الذي يحترم حرية الشعوب.

الا انهم عندما اضطروا الى نقل هذا النظام الديمقراطي الى الشعوب التي استعمروها بعد أن ولى زمان الاستعمار ، وبعد ان اضطر الغرب الى الخروج من تلك الدول وتحملوا مسؤولية إعداد حكومة برلمانية وانشاء كيان سياسي لتلك الدول كقاعدة لاستقلالها، رأوا عندئذ انه ليس افضل من اعارة تلك الدول نظامهم الديمقراطي. ولكن هؤلاء كانوا يدركون في نفس الوقت ان الديمقراطية اذا انتشرت بما هي قائمة عليه في دول الغرب فان الشعوب ستدرك بحدسها الداخلي من هو الوطني الصادق الذي ستسارع الى انتخابه، وعندئذ سيذهب بعيداً ويخطط لتسيير دولته في مسار يخالف مسار الغرب ، وهم يريدونه أن يكون محتوى من قبلهم ، ولهذا راحوا يراقبون الديمقراطية في هذا البلد او ذاك ويعملون ما امكنهم على ان يتم انتخاب رجالهم الذين تم تربيتهم تحت اعينهم ويحملون افكارهم ، ولو على حساب الآخرين الذين يريد الشعب أن ينتخبهم وكثيراً ما يؤدي ذلك الى قيام الحروب الاهلية في تلك البلدان.

ومنذ أن وضع ميكيافيللي مبدأيه: "الغاية تبرر الواسطة – وفصل السياسة عن الدين والاخلاق" وراح الغرب يحذو حذوه في ذلك، منذ ذلك الوقت اسقط من حسابه حقيقة مفهوم الديمقراطية وحرية الشعوب لأنه حينما خلا المسرح لممثلين كبار من ورثة الحضارة الرومانية كانت تلك السمات اللاانسانية وأحال هؤلاء المسرح السياسي العالمي الى ميدان صراع واسع.

بل إن الغرب تطلع منذ أن شعر بقوته ودانت له الدول وجابت سفنه البحار، تطلع الى الاسلام والمسلمين من اجل متابعة اخضاعهم ، خصوصاً بعد تفتيت الدولة العثمانية وتحويل تركيا الى دولة علمانية ، فكان أن فرقوا العالم العربي الى ٢٤ دولة كل دولة لها علمها ورايتها ودستورها وسياستها واقتصادها حتى لا تكاد ترى بينها أثراً للروابط القومية أو الدينية وقد احاطوا تلك الدول بطريقة من التعامل السياسي لكل منها بحيث لا تسعى كل دولة الا لمصالحها وبذلك ضمنوا انعدام قيام الوحدة العربية ، ثم التفتوا الى اقطار الاسلام في الارض وراحوا يحاصرونها بمثل ذلك فكان أن ولدت بنغلادش من باكستان وبقيت كشمير تثير القلاقل بين الهند وباكستان واحاطوا إندونيسيا بآلاف المبشرين النصارى ، وضغطوا اقتصادياً على بقية الدول سياسياً بإثارة الحروب الاهلية ، مما ضمن لهم أن المسلمين لم يعودوا يشعرون بما يصاب به قطر من اقطارهم فضلا عن المسارعة الى انقاذه بحيث صرت تشعر بهذه الغربة القاتلة العربية والاسلامية التي يتحسسها المسلم اذا ما نزلت مصيبة باحدى بلاد الاسلام خاصة فلسطين او البوسنة والهرسك او افغانستان. حتى لتكاد تظن أن المسلم لم يعد لديه اية مشاعر تجاه اخوة له من ابناء دينه وهم يقتلون او تهتك حرماتهم او تهدم ديارهم.

ورغم أن دستور معظم الدول العربية ينص على أن الاسلام هو دين الدولة واللغة العربية لغتها الرسمية الا أن الزعامة السياسية لجأت الى بعض الخطوات التدريجية من فصل الدين عن السياسة والغاء الهوية الدينية ، ثم تعديل الدستور، بمعنى أن التعرض للدين اصبح بشكل هامشي ففي بداية الثورة المصرية ١٩٥٢ ظهرت افكار الثورة المصرية والعروبة كنتيجة لقضايا ذات ابعاد وطنية مثل تأميم قناة السويس والعدوان الثلاثي والوحدة بين مصر وسوريا. وهي قضايا ذات ابعاد وطنية تراجع معها طرح قضايا الدين في المجتمع مما امكن القول "بأن التعبير السياسي يكتسب وينتزع رفعة الشأن على حساب المحاور الاخرى واشكال التعبير ومنها الديني" (٣) .

وهكذا غاب عنا الدين كمحرك رئيسي يدعونا الى الوحدة بل صار الدين اليوم البعبع الذي يخرب بيوتنا – كما يظن – والذي جلب لنا الارهاب والخوف ، أليس هؤلاء الأصوليون ارهابيون ؟ ان هذه التسمية الغربية لهؤلاء بالأصولية الاسلامية لا تعني تشويه سمعتهم بما يقومون به من قتل وتخريب بقدر ما يقصدون بها الى أن هؤلاء يرجعون الى اصول دينهم والى اخطر اخلاق ذلك الدين وهو الارهاب والقتل مما يذكر بان ديننا نشر بالسيف والقوة ... والا لماذا لا يسمونهم بالمجرمين مثلا ولا داعي لوصمهم بالإسلام ولكن الغرب انما يريد أن يجعل من الدين مقتلة للشعوب وطريق ارهاب لها ليتم تشويهه بذلك ... انظر لقد غيبوا عنا الدين زمناً بما ضغطوا به من قوة عسكرية وسياسية وطرح افكار العروبة والقومية ، ثم انظر كيف غيبوا عنا جمال الدين ورونقة بما راحوا يظهرون ما يفعله هؤلاء الاصوليون بعد أن حملوهم هم على ما يقومون به بعد زرع الفتنة والخلاف بينهم وبين حكوماتهم. فاذا اريقت الدماء فليس ثمة سبب الا ان هؤلاء الاصوليين ينتمون الى دين هو الاسلام والذي يدعو الى القتل والارهاب مما يشعرك ان هؤلاء الغربيين انما يقصدون عن عمد تشويه هذا الدين بالارهاب والقتل، مع ان ذلك هو تاريخهم عبر العصور الوسطى وفي حروبهم القومية وامتدادهم بعد عصر النهضة حتى تم لهم اقامة الديمقراطية ، وحتى بين الحربين لم يتوقف نزيف دماء الشعوب التي سفحوها. انهم يعملون على خلق الفتن السياسية للمسلمين كفتنة ليبيا وتشاد ، او بين موريتانيا والسنغال، او بين مصر والسودان (قضية حلايب المتنازع عليها)، او بين السودان وجنوبه ، او بين الهند وباكستان حول كشمير او بين العراق وايران ، او بين فصائل الدولة الواحدة كما في لبنان والعراق والصومال وافغانستان فاذا سالت الدماء كان سببها الاصوليين الارهابيين في كل بلد من تلك البلدان. وقد يتدخلون في شؤون الشعوب صراحة او التفافاً من الخلف عن طريق الكادر السياسي الذي تربى في احضانهم فيدفعون بهم الى احضان المسرح السياسي في صورة انتخابات هزيلة هشة تُسير من وراء

الكواليس ليحتل هؤلاء كرسي الرئاسة فتدار الحكومة من قبلهم وبموافقة الغرب او امريكا على قراراتهم ومن ثم يقف المعارضون – ولو كان الشعب كله – ليحملوا السلاح ويعلنوا عدم رضاهم فيوصموا عندئذ بانهم لا يفهمون الديمقراطية او لا تصلح لهم العدالة الاجتماعية – حسب المفهوم الغربي – او ليوصموا انهم إسلاميون اصوليون إرهابيون.

ومن ابشع صور التدخل او التغريب السياسي ان يرتضي الشعب القيام بانتخابات عامة لكافة فصائله وبكل حرية ثم يفوز حزب الانقاذ في الجزائر فوزاً ساحقاً ثم تُفاجأ بالتدخل الغربي ليضغط على الجيش فيحل الانتخابات لعدم نزاهتها ولتغرق الجزائر بعد ذلك في حرب اهلية دموية...

هذا التغريب السياسي المكشوف بعضه الآخر وراء الكواليس لا يستطيع ان يقيم الامن والامان والعدالة للشعوب ، وهو صورة تدل بحق على ان للغرب ديمقراطيتين: واحدة يتعامل بها في بلدانه واخرى مع الشعوب، وان الديمقراطية المصدرة مطاطية تتسع لكل الشعوب وهي تتبلور من اجل ان يتم انتخاب ازلام امريكا والغرب وطمس حقوق الشعوب صاحبة المصلحة. ان الالتفاف على الشعوب لعبة مكشوفة وان كانت الشعوب لا تملك القدرة على اظهار كل اوراقها، ولكن ورقة واحدة منها تكفي لفضح الاعيب الاستعمار في تدخله في انظمة الشعوب ومحاولته هيكلة الانظمة السياسية في تلك الدول ضمن نطاق الرؤية الغربية المصدرة ولو خالف ذلك حقيقة ما هم عليه في بلادهم من نظام وديمقراطية.

وابشع تلك الدعوات في التغريب السياسي ما يدعو اليه بعض كتابنا من فصل الدين عن الدولة ليتحقق لنا من الرقي والتطور والرفاهية كما تحقق لأوربا وأمريكا. والحقيقة ان هؤلاء لم يفصلوا بين الدين والدولة الا من خلال الصراع الطويل بين سلطة الكنيسة والسلطة الزمنية عبر مئات السنين، سالت فيها الدماء وتغلب فيها رجال العلم والعقل حيث عجزت الكنيسة عن تطوير المجتمع. اما الاسلام فهو يؤمن بقانون التطور في كافة الميادين وهو يتوافق مع كل ما يدعو اليه العقل فلا حاجة للمسلمين والمجتمعات العربية للعلمانية والتي لا تمتلك ما تضيفه بل هي متناقضة مع احتياجاته الرئيسية لخصوصية نشأتها التاريخية وبعدها عن الاطار الديني والقيمي للعروبة (٤). كما ان ديننا لا يعادي الدولة ولا الحكومات وليس فيه بند يعارض حقوق الانسان او حريته وكرامته، وليس فيه رجل دين متسلط فالتشابه معدوم بينهما في ذلك ، فكيف نلج طريقاً سلكه الغرب لا تتشابه مفرداته مع مفردات الاسلام. كما ان مناهضة الكنيسة للعقل والعلم ليس في ديننا شئ من ذلك، ثم ان تخلفنا ليس بسبب الدين – كما يظن الكثيرون – لأن الدين لم يمنع دولة تريد ان تنمي اقتصادها ولم يقف في وجهها وهي تطالب بحرية العقل وحرية الوطن ولم يفرض على

الشعوب خرافات لتؤمن بها ولكن هؤلاء يريدوننا ان نفصل بين الدين والدولة فحسب بل يبدو ان الدين قد كاد يتبخر من كثير من الدول فهل افلحنا في ذلك؟

انه التغريب الذي يريدون ان نخوضه فتتقطع بنا وليس عندنا نهضة علمية صناعية كما كان في الغرب عندما تم له الفصل ، وعندها سنقع في شر اعمالنا ، كما ان الغرب نفسه بذلك يفصل بين الدين والسياسة لم يهدأ لحظة. فقد نشأت فيه فلسفات ومذاهب راحت تخط الطريق للانسان ولكن الانسان لم يجدراحته في اي ٍ منها ولولا شئ من التطور العلمي والتقني يغطي على الفوضى الاجتماعية لبدا واضحاً مساوئ ذلك الفصل بينهما.. وفي ميدان الديمقراطية في ديار الغرب فنحن لا نرى الا ظواهرها عندهم التي نسمع عنها في نشرات الاخبار ، اما حقيقة تلك الديمقراطية وآثارها في المجتمعات فهي التي تكشف لك صحتها او زيفها. صحيح انهم لا يقتتلون على الرئاسة ، مثلنا ولكنهم رغم ذلك لا يفتئون يريقون الدماء في مجتمعاتهم فالقتل والجرائم وقتل الاطفال في بريطانيا ، والفساد المستشري والايدز والخمرة واللواطة صارت جزء من حياتهم. وهذا يعني اننا نقصد الجانب الاخلاقي للديمقراطية. ام يريدوننا ان ننادي بديمقراطية بدون اخلاق فتتقلب موازين مجتمعاتنا لتتحول الى مسارح الجريمة والقتل والأفيون.

لقد ارسى الاسلام من الشورى دعائم فلسفة للنظام السياسي لأن القرآن الكريم يفرض على المسلمين القيام بواجبات دينية يستحيل عليهم القيام بها والوفاء بحقوقها اذا هم لم يقيموا الاسلام ، فهي ليست ركناً دينياً وانما واجب مدني يصعب تنظيم شؤون المجتمع دون الوفاء بها وهذا يعني رفض العلمانية منهجاً واسلوباً(٥).

<u>التغريب الثقافي</u>

الثقافة كلمة تستعمل للدلالة على الرقي الفكري والادبي والاجتماعي للافراد والجماعات بما تحتويه من العقائد واللغة والقيم والمبادئ والسلوك والمقدسات، ولا يمكن ان تنشأ حضارة لأمة ما لم يكن وراءها ثقافة قوية تمتلك من الدين والقيم والاخلاق ما يسمو بها فوق الامم. وقد كانت حضارة المسلمين التي انتشرت خلال ثمانية قرون تعتمد على ثقافة اسلامية شاملة اساسها القرآن الكريم ولحمتها اللغة العربية التي استوعبت كل مستجدات الحضارة قديمها عند الشعوب التي ترجمت عنها وحديثها فيما استحدثه العلماء المسلمون من نظريات، ولتلك الحضارة تأريخ حافل بالامجاد

التي تعلي من شأن الانسان وتكرمه، وفيها تراث يحتضن عظمة هذه الامة ، وهي ثقافة قائمة على التوحيد الذي جمع بين الشرق والغرب.

ولما كانت الثقافة هي الوسيلة العظمى لايقاظ الفكر عند الشعوب والنهوض بها من الحضيض، ولما كانت الثقافة الاسلامية تتسم بالوضوح والتكامل والوسطية والقدرة على الحركة والتجاوب مع مختلف البيئات والعصور وقادرة على مواجهة الاخطار والغزو الخارجي وحركات التغريب، لكل هذا وجه الاستعمار سهامه منذ تطلع الى الاستيلاء على العالم الاسلامي - الى ثقافة هذه الامة فراح يغزوها في دينها ولغتها وتأريخها وتراثها وقيمها تشكيكاً وتشويهاً وقلباً للحقائق.

ولكي نعرف الغرب يجب النظر اليه باعتباره كياناً جغرافياً (اوربا) وصاحب ديانة (المسيحية) وله فلسفة هي (التنوير) وضمن اثنية (العرق الابيض) وداخل نظام اقتصادي (الرأسمالية) ورغم ما قدمه الغرب عبر مفكريه وفلاسفته من حقوق الانسان فانه ما زال في اطار المعنى الكلي لمفهوم التغريب الذي يقوم على الوعي بالذات (الأنا الفاعل) الذي يسعى بشتى الوسائل لاحداث تبعية الاخر لتحقيق ذاته ، فالتغريب يقوم على الامبريالية بوصفها نظاماً كاملاً من الاغتصاب يقوم على الاقطاع ومحو الثقافة واحداث التخلف(٦).

كانت الثقافة اذن احد اكبر الاصول التي راح الاستعمار يشوهها ويطمس معالمها ولهذا قبل ان يستقل جنده سفنهم للاحتلال كان يرسل المبشرين ليمهدوا الطريق الى غزو فكري ثقافي يشوه فكر تلك الامة وينشر نمطه الثقافي الحضاري ، وكان اول ما سددوا السهام اليه في البلدان الاسلامية المصدر الاول للثقافة الاسلامية وهو القرآن الكريم فزعموا انه من تأليف رسول الله (صلى الله عليه وآله) وانه نزل لجزيرة العرب وانه ادى دوره وانتهى وان تطور العصور قد تجاوزه وجعل افكاره بالية، وانه اذا اراد العرب والمسلمون الدخول في عصر الحضارة الغربية فما عليهم الا ان يبتعدوا عنه ويستجيبوا للمذاهب الفكرية الغربية التي تعبر عن روح حضارتهم. ثم كان ان ثنوا بلغة المسلمين ، اليست اللغة وعاء تلك الثقافة والدين فزعموا ان العامية افضل من الفصحى وان مفرداتها اكثر وان الفصحى قاصرة عن ان تعبر عن معطيات العلوم والحضارة الانسانية وزعموا ان كتابتنا بالحروف اللاتينية افضل، وقاموا بعد ذلك بنشر لغتهم حيثما حلوا ونزلوا. ورحل الاستعمار وبقيت اللغة كما هي لغة القرآن يقرأ بها المسلمون وذهب كل دعاة التغريب والعامية حتى من ابناء العروبة مسلمين او غير مسلمين وتبين هدف الاستعمار من كل تلك الدعوات وهو القضاء على هذا الدين وابنائه ..

ولكن الاستعمار لم يتوقف عن محاولة التغريب الثقافي لأبناء العروبة والاسلام وقد أيقن اهمية هدم الثقافة في اية دولة يريد احتلالها ولهذا فرض عندما سيطر على الامة العربية ثقافته باسلوب العنف وقام بدعم مؤسسات علمية تربوية عن طريق الارساليات لتخريج اجيال جديدة تعلي من قيم الغرب وتثير الشبهات حول الاسلام والمسلمين وقد عملت تلك المؤسسات - كما يقول انور الجندي - على صياغة عقولنا من شأنها ان تجعلنا تابعين او مستعبدين(٧).

والشي الذي يقلق مجتمعاتنا العربية والاسلامية ان هذه المجتمعات غير مسموح لها ان تنتج تاريخها الخاص كما تشاء وطبقاً لمعطيات تراثها وامكانيات حاضرها(٨). بينما يقرر د. محمد أركون ان للمجتمع العربي المسلم الحق في ان ينتج بكل حرية وان يبني قيمة الاخلاقية والدينية والثقافية التي يراها ملائمة له، ولكن الحقيقة لم يتح لأي مجتمع اسلامي ان ينتج تاريخه الخاص بواسطة قواه الداخلية وحدها من القرن التاسع عشر وحتى الان(٩).

ولما كانت ثقافة الغرب مستمدة من الفكر اليوناني الهليني القائم على المادية والوثنية والمسيحية وكان فكرنا الاسلامي قائماً على الجمع بين الدين والدنيا والمادة والروح، لذلك كان لابد من قيام التحدي بين الثقافيتين - ولكي يفرض المستعمر ثقافته بالقوة وليتجنب المواجهة قام باثارة قضايا لتغريب الثقافة الاسلامية فطرح قضية "ان الثقافة عالمية" ليصح له بحضارته القوية ان يستولي على العالم الاسلامي - بينما اكد الجميع ان المعرفة عالمية والعلم عالمي ولكن الثقافة قومية لأنها تستمد قيمها من جذور الامة ولغتها ودينها وتاريخها ، وتعد دعوته تلك بان العالم كله يجري نحو وحدة الفكر العالمي من اخطر دعوات التغريب والغزو الثقافي(١٠).

ومن هذه المغالطات التي روجها التغريب الثقافي انه لا فرق بين العقل العربي والعقل الغربي وان العرب والمصريين غربيون بالفكر لارتباطهم بالثقافة اليونانية القديمة (١١) وذلك للتعمية على الفوارق الذاتية والنفسية للامة الاسلامية. وقد عمد من اجل ذلك الى تربية كوادر من أبنائنا في جامعاته لاخراجهم من قيمهم وثقافتهم وليدفع بهم للسير ببلادهم نحو الاقليمية واخطار التحلل والالحاد. كما عمدت قوى التبشير والارساليات الى تحريف المقومات العلمية والحضارية للعرب بحيث كتب الكثيرون صفحات مزيفة مضللة عن التاريخ العربي والحضارة الاسلامية فانكروا على العرب والمسلمين الاصالة الفكرية واعتبروا كل ما ترجموه عنهم انما هو ترجمات علوم الحضارات القديمة وكان الهدف من ذلك هو اسقاط مرحلة هامة من مراحل التطور الحضاري الانساني باغفال دور الحضارة الاسلامية. وقد دافع علماء الغرب انفسهم عن المسلمين وردوا الاعتبار

لأبناء الاسلام واعتبروا الحضارة الاسلامية اعظم حلقة في ملف الحضارات الانسانية والتي تربى عليها ابناء الحضارة الغربية اليوم وبعد عصر النهضة فأقاموا على اصولها حضارتهم.

ولعل اخطر ما يهددنا اننا نتقدم نحو الحضارات الاخرى المتكاتفة ونحن ملل ونحل وقد ضرب اعداؤنا اعز ما يربطنا وهو ديننا عندما افرغوا استقلالاتنا من محتواها الحضاري فلم تنحل جيوشهم الداخلية عن أراضينا الا بعد ان عششت ثقافتهم البديلة في ضمائرنا (١٢).

وقد كان من أعمال التغريب الثقافي ان الاستعمار عمد الى تقديم قشور الحضارة الينا وحجب جوانب القوة عنا كما عمد الى إبعاد الفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية عن مجال الحياة ومناهج التربية وربى كوادر راحت تدافع عن ثقافته بحجة اننا لا يمكن ان نتطور الا اذا اخذنا بها ، على الرغم من ان الحضارة يمكن ان يتم نقلها بين الامم لأنها مادية، اما الثقافات فلا تنقل لأنها بنت بيئتها وقيمها ودينها فلها ثبات في الارض. كما ان الغرب نفسه عندما نقل حضارة المسلمين في الاندلس لم ينقل ثقافتهم وانما اخذ ما يناسب تطوره الحضاري، ولكن هؤلاء يأبون اذا ما ارادوا تزويدنا ببعض مظاهر حضارتهم الا ان نستورد ثقافتهم المادية الوثنية العارية من القيم والاخلاق والمتحللة من كل دين ليتم فسادنا وافسادنا.

واذا كان - البرت اشفيتسر - يرى "ان السبب في انحلال الحضارة وهو سبب اخلاقي لأن الحضارة تنهار اذا أعوزها العامل الأخلاقي حتى حيثما تكون العناصر الاخرى من الحضارة مزدهرة نشطة (١٣) فان تغريب الثقافة ونشر قيم الثقافة الغربية المنحلة سيؤدي بالضرورة الى فساد وانحلال المجتمع العربي والاسلامي ويتم سيطرة الغرب علينا عندئذ .. ومن تلك القضايا التي طرحها الفكر الغربي ليتم السيطرة على الثقافة الاسلامية:

١. مهاجمة الدين بصفة عامة ومحاولة وضع العلم في مواجهته كبديل. وقد فصل الغرب بين العلم والدين وبنى حضارته على ذلك. يقول محمد أركون: "ان تاريخ الاحتكاك بين الاسلام والغرب ما انفك يفرض علينا فكره المتمثل بأن دين محمد (صلى الله عليه وسلم) يقع خارج دائرته الثقافية"(١٤).
٢. القضاء على اللغة بنشر العامية.
٣. اثارة الشبهات حول التاريخ الاسلامي والدعوة الى اقليمية التاريخ للتنقيص من قيمة التاريخ الاسلامي عالمياً.

٤. طرح قضايا الفلسفات اليونانية الغربية بما تحمله من وثنيات وتعدد، فمرة يصدرون الينا القومية البعيدة عن الدين ومرة دعوى التحرر ومرة الوجودية والماركسية والفرويدية والعصرنة والحداثة والعقلانية ، ليتم تشويش الفكر الاسلامي واشغاله بقضايا جانبية بعيداً عن الدين.

٥. نشر القيم الغربية التي لم تنشر الا القلق والفوضى والانسان المشرد الضائع في الغرب وذلك ليتم نشرها بين المسلمين ليتهيأ لهم اخراجهم من قيمهم الخالدة.

٦. طرح قضايا تؤدي الى احباط همة المسلمين فمرة تراهم يقولون ان الاسلام هو مصدر ضعف المسلمين ومرة يصوبون سهامهم نحو الشريعة فيرونها شريعة محدودة قاصرة على جزيرة العرب مستمدة من القانون الروماني. وقد نفى ذلك علماؤنا واثبتوا ان القانون الروماني الذي وجد في القرن ١١ و ١٢ م قد سبقته القوانين الاسلامية بقرون وانه هو استمد بعض ما جاء فيها واعترف مؤتمر القانون الدولي المقارن بلاهاي والمنعقد في ١٩٣٢ بالشريعة الاسلامية كمصدر للتشريع والقانون المقارن مع استقلالها الكامل عن التشريع الروماني.

وعندما احكم الغرب سيطرته على العالم العربي والاسلامي قام بالسيطرة على الثقافة والتعليم والتربية ولجأ الى اقصاء القيم الاسلامية وعزلها او عرضها عرضاً مشوهاً مع ابعاد كل ما يتصل بها من جوانب القوة او البطولة التاريخية بغية تذويب الاجيال في الفكر الغربي.

كما جرى تغييب التراث الاسلامي بعرض جوانب الضعف والتشكيك والاضطراب فيهما(١٥) وقد استطاعت قوى الثقافة العربية والاسلامية ان تكشف زيف الشبهات التي طرحها الفكر الاوربي كما كشفوا اهداف النظام التربوي الغربي الذي فرض على مدارسنا وجامعاتنا والذي استهدف انشاء اجيال تتنكر لشخصيتها الاسلامية وتبغض دينها وتنظر الى تاريخها باحتقار وتعتبر حضارته قد اكل الدهر عليها(١٦).

لقد اراد الغرب ان يوحد العالم ولكن تحت سلطاته ولمصلحته والعالم لا يساس الا بالعدل والحب والاخاء، ولكن الغرب لجأ الى القوة الغاشمة محاولاً تفريغ هذه الامة من قيمها ودينها وثقافتها بحيث لم يسمح لها ان تنتج تاريخها الخاص بحريتها ، فهو من جهة يمارس هيمنته الاقتصادية والسياسية والثقافية على تلك الدول وهو من جهة اخرى يستهزئ بنظامها وقيمها لأنها لا تعرف كيف تتحرر من دينها ولغتها وعاداتها لتصبح حديثة على الطريقة الغربية. كل ذلك على الرغم من ان ثقافة اوربا مهددة بالخطر بل ان من العلماء من تنبأ باعادة انبعاث جديد للحضارات الشرقية، ويقصد حضارة الاسلام ويرى ان هذا سيؤدي الى افول المحور الثنائي الذي يتصرف بمقدرات الكون ومن هؤلاء العلماء بول كنيدي في كتابه "نشوء وسقوط الدول الكبرى" وهو يرى ان

الامراض التي فتكت بالامبراطوريات السابقة بدأت تنخر في جسد هاتين الدولتين (١٧) ويقصد روسيا وامريكا.

وهنا يبدو دور الثقافة الاسلامية كبيراً في تنبيه الاجيال التي احاطها الاستعمار بثقافته، لمحاولة اخراجها من شباكه اولاً ثم السير بها الى آفاق المعرفة والثقافة الاسلامية ليتم اعادة بناء قيمها ووجداناتها من خلال قيم الاسلام الخالدة.

٢. التغريب الاقتصادي

كان من اهم اسباب الحروب الصليبية الحالة الاقتصادية السيئة والركود الذي شل حركة الغرب فاضطروا الى الخروج والقيام بتلك الحملات الظالمة، اذ ان الجماهير في فرنسا وايطاليا -كما يقول د. جورج حداد -رأت انفراجاً لها في هذه الحروب بسبب الاحوال الاقتصادية والاجتماعية السيئة في بلادها(١٨).

ومن خلال تلك الحروب تعرف الغرب على مدنية المسلمين وحضارتهم ورقيهم فكان ان اعدوا للاستيلاء على الشرق ونهبه . وسرعان ما عملوا عقب النهضة الصناعية على التطور الاقتصادي لهم معتمدين على مانقلوه من علوم المسلمين في الاندلس وتم لهم بمخترعات العلم اخضاع الشعوب والاستيلاء على اوطانها وثرواتها، وخاصة البترول.

وصار البترول الهدف الاول الذي من اجله يشنون الحروب الظالمة لأنه عليه تدور مصانعهم في اوربا وامريكا وما زالوا يعبثون به ويخططون حتى فقد البترول قدرته على التأثير على الغرب كسلاح فعال استخدم في حرب تشرين عام ١٩٧٢ بل انه تم تغريبه ومحاصرته وحتى منعه من ان يصدر من كثير من الدول الاسلامية والعربية التي تقف من امريكا موقف المعارض، حتى صار بترولنا مغترباً في اراضينا ومهاجراً في نفس الوقت الى امريكا والغرب. وامسينا كمن يسبح فوق بحر من البترول ولكنه ما يزال يشحد لقمة الخبز من الغرب نفسه.

وعندما تكونت لدى الغرب الثروات الطائلة، تطلع الى بلدان الشرق وافريقيا وامريكا اللاتينية ، وقد ساعدتهم الثورة العلمية في استخراج خيرات الشعوب ومواردها ، ولم يلجأوا عندئذ الى تغريب اقتصاد البلدان فحسب بل انهم ازالوا ممالك اسلامية كانت قائمة في افريقيا لها اقتصادها وحضارتها كامبراطورية غانا وامبراطورية مالي والسنغال(١٩).

ولم يستنزف هؤلاء خيرات الارض فقط وانما انصب تغريبهم على الانسان الفاعل نفسه في افريقيا. فقامت تجارة الرقيق بكل ما تحمل من ابعاد لا انسانية ليتم تغريب اقتصاد الافارقة بنقل الملايين

منهم الى امريكا كيد عاملة بدلاً من الهنود الحمر الذين تم ابادتهم او من اجل اخراج الذهب من امريكا الوسطى وساحل الذهب.

ومن مظاهر التغريب الاقتصادي ان الغرب تجاهل عن عمد الطلبات الداعية الى ضرورة ان تضع اوربا مهارات وتقنيات تحت تصرفهم (العالم الثالث). فقد رفضت امريكا بناء السد العالي بمصر حتى تقدم الاتحاد السوفيتي وعمل على انجازه. ومن هذا التغريب صورة اقرب الى القرصنة في وضح النهار فقد ذكر مسؤول صومالي حكاية بلاده مع المساعدات الامريكية الغذائية واننا ننتج الذرة ما يكفينا ولكن امريكا كانت تصر على ان نزرع البطاطا بدلاً من الذرة وهي عماد غذائنا ، وعندما كنا نصر على زراعة الذرة كانت امريكا تغرق السوق الصومالية في موسم الزرع والبذار وبأسعار اقل وذلك لكي يدع الفلاح ارضه بوراً وبهذا يضرب الاقتصاد الصومالي"(٢٠).

ومن هذا القبيل الزام بريطانيا مصر - يوم استعمارها لها - بزراعة القطن من اجل تشغيل مصانع النسيج في مانشستر ، والزام فرنسا الجزائر بزراعة الكرمة لتشغيل معامل الخمور، ولما قامت مصر بزراعة القطن وتصنيعه واقامت مصانع الزجاج وبخبرات اوربية، راى الغرب ان ذلك يتعارض مع احتياجات الرأسمالية الاوربية التي كانت تريد من مصر وحولها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وعلى يد الخديوي الى شحاد دولي حيث رهنت مصر باكملها لرجال المال الاحتكاريين الدوليين(٢١).

ومن هذه الصور القائمة ان الورش الحرفية كانت في الجزائر مزدهرة في مدن وهران وقسنطينة وتلمسان وغيرها غير ان وصول الاستعمار الفرنسي دمر تلك الصناعات الحرفية وترك الآلاف بلا عمل ، بل ان الغرب المستعمر لجأ الى ما هو ابلغ من ذلك ، لجأ الى ما عرف بالزراعة الواحدية في مستعمراته لاستغلال اقتصادها فكان ان فرض في ليبريا زراعة المطاط فقط والكاكاو في ساحل العاج والنخيل في داهومي وجنوب نيجيريا والقطن في السودان واوغندا. وقد جعلت تلك الزراعات الواحدية هاتيك البلدان تعتمد كلياً على ماتشتريه من البلدان الاستعمارية فصارت في قبضة المستعمر شاءت ام ابت(٢٢). وهذا اسلوب شيطاني من اساليب الاستعمار في تغريب اقتصاد الشعوب والتحكم به.

اقول ان هذا التمركز العنصري لدى الغربيين في محاولتهم السيطرة على كل شئ يهدر التاريخ الحقيقي لتقدم البشرية واسهام شعوبنا فيه، ويغفل هؤلاء عما تقدمه شعوب بحضاراتها المتنوعة من اثراء للحضارة الانسانية في الوقت الذي تصطدم فيه الحضارة الغربية مع تطلعات الشعوب التي

كانت تظن ان الغرب انما جاءها من اجل انقاذها وقد نسي هؤلاء ان تقدم البشرية رهن بالتفاعل الخلاق بين الحضارات المتنوعة التي يحترم بعضها بعضا(٢٣).

ومن خلال الاستعمار القديم ثم الحديث تمكنت الدول الرأسمالية من ادماج الاقتصادات المتخلفة للمستعمرات المستقلة حديثاً، تمكنت من ادماج اغلبها ضمن شبكة التقسيم الرأسمالي الدولي للعمل فكان ان عملت تلك الدول على احتكاره للتقدم التكنولوجي من اجل تثبيت الموقع المتخلف لبلدان العالم الثالث، ولهذا تخصص الرأسمالي الغربي في الانتاج الصناعي المتطور المتمثل في الصناعات التحويلية مقابل قيام البلدان المستعمرة على الانشطة الاولية كالزراعة والحراجة (الغابات) والصيد والصناعات الاستخراجية (المنجمية) بهدف تلبية حاجات الدولاب الصناعي الغربي الى المواد الخام (٢٤) واستمر هذا النمط من الصناعة من فجر النهضة الصناعية في القرن الخامس عشر الى اواسط القرن الثامن عشر وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥ .

ولم يكتف الغرب بذلك وانما عمل على نقل عدد من الصناعات الملوثة للبيئة من بلدانهم (كالبتروكيمياويات) والصناعات التي لم تعد لها الصدارة في السباق التكنولوجي، عملوا على نقلها الى البلدان العربية والخليجية واقيمت هذه الصناعات على اساس من تكنولوجيا اجنبية منقولة في غير وسطها الطبيعي دونما ارتباط بسائر الاقتصادات القطرية نفسها بل مرتبطة بالاقتصاد الغربي ككل. وقد قرأت في احدى مجلات - العربي - ان انتاج تلك المصانع تكدس ولم تجد له تلك الدولة اسواقاً للتصدير، كما انني سمعت من احدى الاذاعات ان دول الغرب فرضت ضريبة متصاعدة على استيراد انتاج تلك المصانع من دولة الامارات مما يعني قتل تلك الصناعات في مهدها وهكذا عملوا على تغريب اقتصادنا وفوق ارضنا وبأيدينا.

واضافة الى ما يفرضه النظام الاقتصادي العالمي في صفته الراهنة من تحديات وعقبات للعامل الثالث من خلال تقسيم العمل وعلاقة السيطرة والتبعية، فاننا نجد هناك تحديات اخرى تعمل على تغريب الاقتصاد الاسلامي ، منها المكانة الاستراتيجية والموقع الهام للوطن العربي وتنازع الغرب الرأسمالي على موارده الطبيعية ومضاعفة الصراع العربي الاسرائيلي مما يؤدي الى عرقلة أي سعي عربي دؤوب لاحراز ادنى قسط من التطور العلمي والتكنولوجي. يقول د. حقي بريوني: "لأن الاحتكارات الكبرى تسيطر على المجتمع في الغرب لذا كان لها اليد الاولى في عملية رسم القرار السياسي والاقتصادي خصوصاً في التعامل مع الدول النامية. فالغرب يعامل هذه الدول معاملة غير انسانية مبنية على تحكم فوق امبريالي فهو يصدر اليها تقنيته البدائية غير المتطورة

لامتصاص المواد الاولية الازمة للصناعة ومصادر الطاقة مستهدفاً تعويق قيام صناعات اساسية مصنعة في دول العالم الثالث لتبقى الاوضاع كما هي ، الغرب ياخذ الموارد ويصنعها ثم يبيعها لتلك الدول باسعار خيالية(٢٥).

وهكذا فالمحتوى التقني الاقتصادي للحضارة الغربية والذي بهر الناس يقم دون استيلاء الغرب على موارد الشعوب الاخرى (في امريكا الشمالية واستراليا وافريقيا والشرق الاوسط) والاستيلاء على الموارد البشرية (الرقيق في افريقيا للعمل في المناجم والمستعمرات). وبهذا الاحتواء والسيطرة على اقتصادات الشعوب العربية والاسلامية والشعوب الاخرى استطاع الغرب وامريكا احتواء تلك الدول والسيطرة على قرارها السياسي والتدخل في كافة شؤونها. وكلما تقدم الغرب زاد تخلف دول العالم الثالث لأن المعادلة مرسومة بحيث تظل تلك الدول في مقام التخلف والتبعية الاقتصادية للاستعمار. واذا كان الانسان هو باني الاقتصاد فان ما قام به الغرب الاستعماري من عملية بيع الرقيق يعد ابشع عمل يقومون به من اجل شل اقتصاد تلك الشعوب. يقول د. والتر رودني: "هناك شركات تجارية استعمارية مخضبة ايديها بدماء الافارقة لمشاركتها في تجارة الرقيق. فبعد ان حقق تجار فرنسيون من بوردو ثروات من تجار الرقيق الاوربية قاموا بتحويل تلك الاموال للتجارة في الفول السوداني في السنغال وغامبيا منذ منتصف القرن ١٩ (٢٦).

وقد كان ابشع ما أقدم عليه الاستعمار في ذلك هو ما سجله التاريخ للبرتغال فيما يتعلق بممارسات غير انسانية تدينهم باستعباد البشر والذي ادينوا به من قبل الرأي العام العالمي. اذ ان هؤلاء البرتغاليين المستعمرين لم يقتصروا في استخدام الرقيق للسخرة من اجل مواطنيهم فقط بل لجئوا الى تصدير هؤلاء الرقيق وتأجيرهم في دول اخرى، فقد قاموا بتصدير الانغوليين والموزنبيقيين الى منجم جنوب افريقيا للعمل من اجل الكفاف، مقابل مبلغ يدفعه رأسماليوا جنوب افريقيا للحكومة البرتغالية كل عام"(٢٧).

وما تزال حملة الغرب وامريكا على اقتصاد العالم العربي والاسلامي بمحاولته منع أي تطور صناعي او زراعي يؤدي الى تقدم تلك الدول ولقد عيينا ونحن نسمع عن مؤتمرات عربية تنعقد وتؤكد على زراعة السودان لملايين من الهكتارات والتي تكفي العالم العربي بأجمعه ثم ما نلبث ان نسمع عن توقف تطبيق ذلك، ويجهض المشروع لأسباب علمها عند الله في كتاب - بل انني قرأت في كتاب للدكتور احمد شلبي عن (السادات وعهده) ان امريكا اخذت عليه تعهداً بالا تزرع مصر القمح كي تظل مصر تحت رحمة قمح امريكا. وما خضوع مصر اليوم لامريكا

والصهيونية الامن اجل هذه الغاية لأن اية مخالفة من مصر لأمريكا تعني توقف بواخر القمح الامريكية من الوصول الى ميناء الاسكندرية.

ان الامة التي تأكل مما يزرعه غيرها لا تستأهل الحياة ولا تستطيع الحياة الا تحت مظلة الذل والهوان. ولو نظرت لوجدت ان كل الدول العربية والاسلامية تستجدي رغيف الخبز فهل نعي هذا الدرس قبل فوات الاوان. ان صناعة القرار السياسي عند كل دولة صار اليوم رهيناً بقوة اقتصادها فهل نستطيع ان يكون لنا اقتصاد قوي لنعمل على صنع قرارنا السياسي بأنفسنا.

وما الحلول التي توصلت اليها الامم المتحدة اليوم وبقيادة القطب امريكا من فرض الحصارات الاقتصادية على دول المسلمين وبالاخص ليبيا وايران والعراق ودول العالم الآخر كوبا وكوريا وغيرهما الا من قبيل هذه الحب الجديدة التي تنبه اليها الاستعمار والتي لا تكلفه دبابات ولا طائرات ولا قتلى من ابنائه. انها الحرب الاقتصادية المعلنة على الشعوب، حرب التجويع والتهديد بالرغيف وهي حرب صامتة ساخنة في نفس الوقت. وهي حرب ظالمة لا تدل الا على ان الانسان الغربي غداً وحشاً متمرساً في آخريات القرن العشرين والشعوب الاستعمارية الرأسمالية لا يهمها تأمين مصالح الانسان على الارض بقدر ما يهمها ان تتخم جيوبها وبطونها.

الهوامش

١. كاتب اسلامي من فلسطين.
٢. المدخل الى تاريخ الحضارة، د. جورج حداد. مطبعة الجامعة السورية/١٩٥٨ ـص ٤٨١.
٣. المرجع نفسه ص ٥٠ .
٤. انظر مجلة الوحدة، العدد ٤٨ ص ٢٠٧ . انظر تحليل كتاب - "أزمة المجتمع العربي"/د.سمير امين مراجعة جورج مصري.
٥. المرجع نفسه ص ٢٠٧ .

٦. مجلة العربي، العدد ٤٢ ، انظر تحليل كتاب "تغريب العالم" سيرج لاتوش عرض سعيد كزاوي، ص ١٩٧ .
٧. الثقافة العربية لأنور الجندي، دار الكتاب اللبناني، ط١، عام ١٩٨٢ .
٨. انظر مقالة هاشم صالح "الفكر العربي المعاصر ومسالة الحركات الاصولية" في مجلة الوحدة، العدد ٩٦، ص ٧٦.
٩. المقال نفسه ص ٧٦ .
١٠. الثقافة العربية ص ١٢ .
١١. المصدر نفسه ص ٢٢٩ .
١٢. انظر مجلة النور، العدد ٥٠، ص ٥ ، تحليل كتاب الاسلام وصراع الحضارات/د.احمد القديري.
١٣. "الثقافة العربية" ، انور الجندي، ص ٢٨٠ .
١٤. مقالة "الحركات الاسلامية قراءة أولية". د. محمد أركون ترجمة هاشم صالح في مجلة الوحدة، العدد ٩٦، ص ١٢ .
١٥. انظر الثقافة العربية ص ٢٩٩ .
١٦. المرجع نفسه، ص ٢٠٠ .
١٧. انظر مجلة "كلية الدعوة" ، ليبيا، طرابلس، العدد ٨، لعام ١٩٩١، مقال دور الجامعات العربية والافريقية، د. محمد علي الصلبي، جامعة النجاح - نابلس .
١٨. انظر المدخل الى تاريخ الحضارة ، د. حداد، ص ٤٧ .
١٩. انظر اوربا والتخلف في افريقيا ص ٨٦ للدكتور والتر رودني - ترجمة د. احمد القصير .
٢٠. مجلة الوحدة، العدد ٨٤ .
٢١. اوربا والتخلف في افريقيا ص ٢٠٢ . سلسلة عالم المعرفة ، العدد ١٣٢ - الكويت.
٢٢. المرجع نفسه ، ص ٢٤٤ .
٢٣. "دراسات في التنمية والتكامل الاقتصادي العربي" سلسلة كتب المستقبل العربي، بيروت حزيران ١٩٨٢ م ، ط١، مقالة د. اسماعيل صبري عبد الارض ٦٩-٧٠ .
٢٤. مجلة الوحدة ، العدد ٨٦ ، مقال د. محمد عبد الشفيع عيسى ، ص ٤١ .
٢٥. مجلة الوحدة، العدد ٨٦ ، ص ٥٩ مقالة د. حقي بريوني .
٢٦. انظر اوربا والتخلف في افريقيا .ص ٢٢٥ .

٢٧. المصدر نفسه ، ص ٢٤٣ .

سياسة تغريب العالم الإسلامي

طه جسام

ملخص

الثقافة الاسلامية تتعرض لغزو التغريب، لا لكي تكون غربية، بل لتهتز دعائمها، وتضعف بنيتها، ويحبط مفعولها في الامة، فما هي طبيعة هذه المواجهة؟ وما هي السبل المتبعة في هذا التغريب هذا ما يحاول الباحث ان يعالجه، من خلال استعراض مظاهر التغريب التي تمارسها دول الاستكبار العالمي تجاه العلو الاسلامي.

مافتئ الاستعمار الغربي منذ ان داست أقدامه ديار العرب والمسلمين يعمل على تغريب العالم الاسلامي في كل الميادين، وذلك بغية حرفه عن اصول عقيدته وشريعته وبغرض ان يحوله الى عالم تابع للغرب ثقافياً واجتماعياً واقتصادياً وسياسياً. ورغم ان المسلمين يمتلكون في اصل رسالتهم السماوية أسساً ثابتة وقواعد حنيفة تقوم عليها دولتهم، الا ان الاستعمار استطاع وفي غياب الوحدة الاسلامية - ان ينال من كل دولة على حدة، بل انه استطاع ان يؤثر على هذه الامة فيضرب بعضها ببعض او يدجن بعضها الاخر في شبحية الذل او يقوقع الآخرين في بلدانهم او يلوح بعصا قوته في وجه فريق رابع، وبهذا استطاع ان يحد الحدود فيما بينهم ويجزئ الاقطار ويلقي بذور الشقاق والتغريب والانحراف. فإلى أي مدى افلح في ذلك؟ ذلك هو بحثنا.

عندما ظهر الاسلام قوياً في جزيرة العرب وكان يحمل في طياته مشروعاً حضارياً متكاملاً يصلح نظاماً لكل شعوب الارض، كان ظهوره مدعاة لتساؤل ابناء إمبراطوريتي الروم وفارس عن دواعي ظهوره وفي ارض غير ذي زرع. وقد كانت عوامل نهوض المسلمين اكبر مما ظن هؤلاء اذ ان دولتهم قامت على قيم التوحيد والعلم والتقوى وحفظ كرامة الانسان والتعامل مع الشعوب بالحسنى وعدم العدوان على احد، وكان من مبادئه نقل هذه القيم الحضارية الى الشعوب التي ترزح تحت نير الاستعباد والاستغلال. وفي هذا الوقت بالذات كانت دولتا الفرس والروم قد انتهتا يومئذ الى عبادة الاباطرة عند الرومان والاكاسرة عند الفرس، وتحجمت بالقيم الانسانية لتصبح خضوعاً لملك او سجوداً للنار، وقتلاً للعقول التي وهبها الله للبشرية. ولما كان الامر كذلك كان لابد من اصطدام هؤلاء بقيم الحضارة الاسلامية من الجولة الاولى. ولذا راحوا يغيرون على اطراف الجزيرة العربية من اجل وأد هذه الدولة في مهدها. ولهذا السبب كانت اعظم خطوات رسول الله (صلى الله عليه وآله) قبيل وفاته هي تسيير جيش اسامة الى اطراف الجزيرة لملاقاة الروم. وتابع ابو بكر (رضي الله عنه) ذلك الجيش في خلافته وحسب المستشرقون ان وقوف ابي بكر (رضي الله عنه)

بوجه دولتين عظيمتين واعلانه الحرب عليهما في وقت واحد مغامرة غير مضمونة ولكنها اثمرت في عهد الخليفة عمر (رضي الله عنه) فتم القضاء على الدولتين العظيمتين في عشرة ايام. ستة ايام في معركة اليرموك وانتهت دولة الروم واربعة ايام في القادسية وانهت الفرس.

<u>استيقاظ الغرب على عظمة المسلمين</u>

وتنتهي اسطورة الفرس والرومان– وان كانت دولة بيزنطا قد امتدت الى ما بعد ذلك -ويسارع المسلمون الى عبور الاقطار ونشر رسالة الاسلام بدء من القرن السابع، وتقوم دولتهم في دمشق وبعدها في بلاد الاندلس، ويحدث الاحتكاك المباشر مع الغرب الذي ربما عرف شيئاً عن المسلمين وحياتهم عبر الرحلات التجارية التي كان يقوم بها المسلمون الى ديارهم.

ولكن الغرب يومئذ كان قد انتهت به المسيحية المشوهة الى مذاهب متعددة حجرت على العقول والافكار وتسلم رجال الكنيسة زعامة الناس فطمسوا معالم العلوم والحكمة حتى كان رجل الكنيسة يتحكم في الملوك وتتويجهم. وقد انتهى الامر بهولاء الى انهيار الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية مما دعا الغرب يومئذ ومن خلال الفوضى الدينية والاقتصادية الى القيام بحملات صليبية ظالمة اتخذت من الدين شعارا لها لحمل الناس على النهوض الى القتال... ومن خلال احتكاك الغرب بالمسلمين اطلعوا على مدى تقدمهم وحضارتهم في ميادين السياسة والعلوم والاقتصاد وعلوم الطبيعة والحياة، وعرفوا مدى حريتهم وعدالتهم وادركوا الفارق الكبير بين تخلفهم وهمجيتهم والاشواط الكبيرة التي قطعها المسلمون في ركب الحضارة بل انهم اطلعوا عن قرب على مدنية المسلمين ورقيهم الادبي والعلمي والاخلاقي. وعندما تم طرد الصليبيين عام ١٢٩٢ م ادرك ابناء الغرب وخاصة هؤلاء الذين انخرطوا في الحملات الصليبية من المحاربين والتجار ورجال كنيسة، ادركوا باحتكاكهم بالشرق المسلم المتحضر مدى رقيهم، فكان ان نقلوا عادات المسلمين وافكارهم وشاراتهم واساليبهم في الزراعة والتجارة وادوات الحضارة وحتى افكارهم في التسامح والحرية وكيف تتعايش بينهم المذاهب المختلفة بينما كانت الحروب دائرة بين مذاهبهم في اوربا(٢). ولما عرفوا ذلك سرعان ما سلكوا الطريق الصحيح فانخرطوا في مدارس المسلمين في الاندلس وصقلية يتعلمون على ايديهم ويترجمون علومهم ويتقنون آدابهم وصناعاتهم. وكان منهم رجال كنيسة وملوك كفريدريك الثاني وروجر الثاني، ولكن نواياهم لم تكن يومئذ سليمة اذ كانوا يخفون من النيات مالا يبدونها للمسلمين وكان يبيتون مالا يرضى من القول والفعل ويحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم - ومن ثم راحوا يطورون انفسهم بانشاء الجامعات وترجمة القرآن ونقل كنوز المسلمين

من آداب وعلوم وصناعات من جهة وراح مستشرقوهم يعملون على تغريب الاسلام والدين فراحوا يكتبون ويؤلفون ويشوهون هذا الدين بدء من قرآنه ونبيه وتاريخه ورجاله وحضارته.. كان ذلك بدء الزحف على الاسلام والمسلمين والغزو الثقافي الاسود بتسليط الاضواء على القيم الحضارية التي بنيت عليها حضارة المسلمين ليتم نسف جسورها.

وقد وافق ذلك كله عندهم ظهور عصر النهضة والخروج من بلدانهم ليسقطوا على بلدان المسلمين مستعمرين للأرض والانسان ومشوهين الدين والحضارة ومحاولين فرض نمطهم الغربي وقيمهم الآليه.

محاصرة الاسلام

إذن فمنذ اللحظة الاولى التي نقلوا فيها علوم المسلمين راحوا يرسمون الخطط لمحاصرة المسلمين في كل مكان على الرغم من أن المنصفين منهم اظهروا لهم حقيقة الاسلام وانه لا يعادي الاديان ولا يحمل الحقد على احد وهو دين العدل والتسامح واحترام الشعوب ورغم امتداح هؤلاء الدين الا أن معظم الغربيين وبقيادة رجال الكنيسة ومنذ بداية عصر النهضة راحوا يتهيئون للإطاحة بالاسلام، ثم تم التعاون الدولي يوم بدأ هؤلاء بشن حملات استعمارية لاستعمار الشعوب وكانوا يدخلون البلدان بصورة ثالوث: الجندي والتاجر والكاهن. ورغم وقوع دول العالم الثالث فريسة لهؤلاء منذ بضعة قرون والبعض الاخر في فترة ما بين الحربين العالميتين، ورغم تطور الشعوب وتغير موازين القوى والتعامل مع الشعوب وذهاب موجة الاستعمار الاولى وان هؤلاء لابد خارجون يوماً ما من تلك الدول الا انهم مازالوا يعدون الخطط لتغريب تلك الشعوب وخاصة العالم الاسلامي سياسياً وثقافياً واقتصادياً، وسنركز الحديث حول دور هذه الابعاد في طمس معالم الشخصية الاسلامية.

١. التغريب السياسي

يحسن بنا أن نشير هنا الى ظاهرة الديمقراطية والليبرالية التي تقوم عليها النظم في الدول الغربية. فنقول إن هذه الظاهرة يتعامل الغرب من خلالها وينظر بمنظورين لا منظور واحد ، فهي في بلدانهم تعني حكم الشعب نفسه بنفسه من خلال موافقة الأغلبية، الى جانب نشر العدالة والمساواة واحترام الانسان مع وجود معارضة للحزب الحاكم ، بمعنى اعطاء الشعب منتهى الحرية في اختيار من يريد ، وعلى هذا قامت حكومات الغرب ودولها ورفعت عقيرتها عالياً في مواجهة النظام الشيوعي ذي الحزب الواحد واعلنت انها تمتلك النظام الامثل الذي يحترم حرية الشعوب.

الا انهم عندما اضطروا الى نقل هذا النظام الديمقراطي الى الشعوب التي استعمروها بعد أن ولى زمان الاستعمار ، وبعد ان اضطر الغرب الى الخروج من تلك الدول وتحملوا مسؤولية إعداد حكومة برلمانية وانشاء كيان سياسي لتلك الدول كقاعدة لاستقلالها، رأوا عندئذ انه ليس افضل من اعارة تلك الدول نظامهم الديمقراطي. ولكن هؤلاء كانوا يدركون في نفس الوقت ان الديمقراطية اذا انتشرت بما هي قائمة عليه في دول الغرب فان الشعوب ستدرك بحدسها الداخلي من هو الوطني الصادق الذي ستسارع الى انتخابه، وعندئذ سيذهب بعيداً ويخطط لتسيير دولته في مسار يخالف مسلر الغرب ، وهم يريدونه أن يكون محتوى من قبلهم ، ولهذا راحوا يراقبون الديمقراطية في هذا البلد او ذاك ويعملون ما امكنهم على ان يتم انتخاب رجالهم الذين تم تربيتهم تحت اعينهم ويحملون افكارهم ، ولو على حساب الآخرين الذين يريد الشعب أن ينتخبهم وكثيراً ما يؤدي ذلك الى قيام الحروب الاهلية في تلك البلدان.

ومنذ أن وضع ميكيافيللي مبدأيه: "الغاية تبرر الواسطة – وفصل السياسة عن الدين والاخلاق" وراح الغرب يحذو حذوه في ذلك، منذ ذلك الوقت اسقط من حسابه حقيقة مفهوم الديمقراطية وحرية الشعوب لأنه حينما خلا المسرح لممثلين كبار من ورثة الحضارة الرومانية كانت تلك السمات اللاانسانية وأحال هؤلاء المسرح السياسي العالمي الى ميدان صراع واسع.

بل إن الغرب تطلع منذ أن شعر بقوته ودانت له الدول وجابت سفنه البحار، تطلع الى الاسلام والمسلمين من اجل متابعة اخضاعهم ، خصوصاً بعد تفتيت الدولة العثمانية وتحويل تركيا الى دولة علمانية ، فكان أن فرقوا العالم العربي الى ٢٤ دولة كل دولة لها علمها ورايتها ودستورها وسياستها واقتصادها حتى لا تكاد ترى بينها أثراً للروابط القومية أو الدينية وقد احاطوا تلك الدول بطريقة من التعامل السياسي لكل منها بحيث لا تسعى كل دولة الا لمصالحها وبذلك ضمنوا انعدام قيام الوحدة العربية ، ثم التفتوا الى اقطار الاسلام في الارض وراحوا يحاصرونها بمثل ذلك فكان أن ولدت بنغلادش من باكستان وبقيت كشمير تثير القلاقل بين الهند وباكستان واحاطوا إندونيسيا بآلاف المبشرين النصارى ، وضغطوا اقتصادياً على بقية الدول سياسياً بإثارة الحروب الاهلية ، مما ضمن لهم أن المسلمين لم يعودوا يشعرون بما يصاب به قطر من اقطارهم فضلا عن المسارعة الى انقاذه بحيث صرت تشعر بهذه الغربة القاتلة العربية والاسلامية التي يتحسسها المسلم اذا ما نزلت مصيبة باحدى بلاد الاسلام خاصة فلسطين او البوسنة والهرسك او افغانستان. حتى لتكاد تظن أن المسلم لم يعد لديه اية مشاعر تجاه اخوة له من ابناء دينه وهم يقتلون او تهتك حرماتهم او تهدم ديارهم.

ورغم أن دستور معظم الدول العربية ينص على أن الاسلام هو دين الدولة واللغة العربية لغتها الرسمية الا أن الزعامة السياسية لجأت الى بعض الخطوات التدريجية من فصل الدين عن السياسة والغاء الهوية الدينية ، ثم تعديل الدستور، بمعنى أن التعرض للدين اصبح بشكل هامشي ففي بداية الثورة المصرية ١٩٥٢ ظهرت افكار الثورة المصرية والعروبة كنتيجة لقضايا ذات ابعاد وطنية مثل تأميم قناة السويس والعدوان الثلاثي والوحدة بين مصر وسوريا. وهي قضايا ذات ابعاد وطنية تراجع معها طرح قضايا الدين في المجتمع مما امكن القول "بأن التعبير السياسي يكتسب وينتزع رفعة الشأن على حساب المحاور الاخرى واشكال التعبير ومنها الديني" (٣) .

وهكذا غاب عنا الدين كمحرك رئيسي يدعونا الى الوحدة بل صار الدين اليوم البعبع الذي يخرب بيوتنا – كما يظن – والذي جلب لنا الارهاب والخوف ، أليس هؤلاء الأصوليون ارهابيون ؟ ان هذه التسمية الغربية لهؤلاء بالأصولية الاسلامية لا تعني تشويه سمعتهم بما يقومون به من قتل وتخريب بقدر ما يقصدون بها الى أن هؤلاء يرجعون الى اصول دينهم والى اخطر اخلاق ذلك الدين وهو الارهاب والقتل مما يذكر بان ديننا نشر بالسيف والقوة ... والا لماذا لا يسمونهم بالمجرمين مثلا ولا داعي لوصمهم بالإسلام ولكن الغرب انما يريد أن يجعل من الدين مقتلة للشعوب وطريق ارهاب لها ليتم تشويهه بذلك ... انظر لقد غيبوا عنا الدين زمناً بما ضغطوا به من قوة عسكرية وسياسية وطرح افكار العروبة والقومية ، ثم انظر كيف غيبوا عنا جمال الدين ورونقة بما راحوا يظهرون ما يفعله هؤلاء الاصوليون بعد أن حملوهم هم على ما يقومون به بعد زرع الفتنة والخلاف بينهم وبين حكوماتهم. فاذا اريقت الدماء فليس ثمة سبب الا ان هؤلاء الاصوليين ينتمون الى دين هو الاسلام والذي يدعو الى القتل والارهاب مما يشعرك ان هؤلاء الغربيين انما يقصدون عن عمد تشويه هذا الدين بالارهاب والقتل، مع ان ذلك هو تاريخهم عبر العصور الوسطى وفي حروبهم القومية وامتدادهم بعد عصر النهضة حتى تم لهم اقامة الديمقراطية ، وحتى بين الحربين لم يتوقف نزيف دماء الشعوب التي سفحوها. انهم يعملون على خلق الفتن السياسية للمسلمين كفتنة ليبيا وتشاد ، او بين موريتانيا والسنغال، او بين مصر والسودان (قضية حلايب المتنازع عليها)، او بين السودان وجنوبه ، او بين الهند وباكستان حول كشمير او بين العراق وايران ، او بين فصائل الدولة الواحدة كما في لبنان والعراق والصومال وافغانستان فاذا سالت الدماء كان سببها الاصوليين الارهابيين في كل بلد من تلك البلدان. وقد يتدخلون في شؤون الشعوب صراحة او التفافاً من الخلف عن طريق الكادر السياسي الذي تربى في احضانهم فيدفعون بهم الى احضان المسرح السياسي في صورة انتخابات هزيلة هشة تُسير من وراء

الكواليس ليحتل هؤلاء كرسي الرئاسة فتدار الحكومة من قبلهم وبموافقة الغرب او امريكا على قراراتهم ومن ثم يقف المعارضون – ولو كان الشعب كله – ليحملوا السلاح ويعلنوا عدم رضاهم فيوصموا عندئذ بانهم لا يفهمون الديمقراطية او لا تصلح لهم العدالة الاجتماعية – حسب المفهوم الغربي – او ليوصموا انهم إسلاميون اصوليون إرهابيون.

ومن ابشع صور التدخل او التغريب السياسي ان يرتضي الشعب القيام بانتخابات عامة لكافة فصائله وبكل حرية ثم يفوز حزب الانقاذ في الجزائر فوزاً ساحقاً ثم تُفاجأ بالتدخل الغربي ليضغط على الجيش فيحل الانتخابات لعدم نزاهتها ولتغرق الجزائر بعد ذلك في حرب اهلية دموية...

هذا التغريب السياسي المكشوف بعضه الآخر وراء الكواليس لا يستطيع ان يقيم الامن والامان والعدالة للشعوب ، وهو صورة تدل بحق على ان للغرب ديمقراطيتين: واحدة يتعامل بها في بلدانه واخرى مع الشعوب، وان الديمقراطية المصدرة مطاطية تتسع لكل الشعوب وهي تتبلور من اجل ان يتم انتخاب ازلام امريكا والغرب وطمس حقوق الشعوب صاحبة المصلحة. ان الالتفاف على الشعوب لعبة مكشوفة وان كانت الشعوب لا تملك القدرة على اظهار كل اوراقها، ولكن ورقة واحدة منها تكفي لفضح الاعيب الاستعمار في تدخله في انظمة الشعوب ومحاولته هيكلة الانظمة السياسية في تلك الدول ضمن نطاق الرؤية الغربية المصدرة ولو خالف ذلك حقيقة ما هم عليه في بلادهم من نظام وديمقراطية.

وابشع تلك الدعوات في التغريب السياسي ما يدعو اليه بعض كتابنا من فصل الدين عن الدولة ليتحقق لنا من الرقي والتطور والرفاهية كما تحقق لأوربا وأمريكا. والحقيقة ان هؤلاء لم يفصلوا بين الدين والدولة الا من خلال الصراع الطويل بين سلطة الكنيسة والسلطة الزمنية عبر مئات السنين، سالت فيها الدماء وتغلب فيها رجال العلم والعقل حيث عجزت الكنيسة عن تطوير المجتمع. اما الاسلام فهو يؤمن بقانون التطور في كافة الميادين وهو يتوافق مع كل ما يدعو اليه العقل فلا حاجة للمسلمين والمجتمعات العربية للعلمانية والتي لا تمتلك ما تضيفه بل هي متناقضة مع احتياجاته الرئيسية لخصوصية نشأتها التاريخية وبعدها عن الاطار الديني والقيمي للعروبة (٤). كما ان ديننا لا يعادي الدولة ولا الحكومات وليس فيه بند يعارض حقوق الانسان او حريته وكرامته، وليس فيه رجل دين متسلط فالتشابه معدوم بينهما في ذلك ، فكيف نلج طريقاً سلكه الغرب لا تتشابه مفرداته مع مفردات الاسلام. كما ان مناهضة الكنيسة للعقل والعلم ليس في ديننا شئ من ذلك، ثم ان تخلفنا ليس بسبب الدين – كما يظن الكثيرون – لأن الدين لم يمنع دولة تريد ان تنمي اقتصادها ولم يقف في وجهها وهي تطالب بحرية العقل وحرية الوطن ولم يفرض على

الشعوب خرافات لتؤمن بها ولكن هؤلاء يريدوننا ان نفصل بين الدين والدولة فحسب بل يبدو ان الدين قد كاد يتبخر من كثير من الدول فهل افلحنا في ذلك؟

انه التغريب الذي يريدون ان نخوضه فتتقطع بنا وليس عندنا نهضة علمية صناعية كما كان في الغرب عندما تم له الفصل ، وعندها سنقع في شر اعمالنا ، كما ان الغرب نفسه بذلك يفصل بين الدين والسياسة لم يهدأ لحظة. فقد نشأت فيه فلسفات ومذاهب راحت تخط الطريق للانسان ولكن الانسان لم يجدراحته في اي ٍ منها ولولا شئ من التطور العلمي والتقني يغطي على الفوضى الاجتماعية لبدا واضحاً مساوئ ذلك الفصل بينهما.. وفي ميدان الديمقراطية في ديار الغرب فنحن لا نرى الا ظواهرها عندهم التي نسمع عنها في نشرات الاخبار ، اما حقيقة تلك الديمقراطية وآثارها في المجتمعات فهي التي تكشف لك صحتها او زيفها. صحيح انهم لا يقتتلون على الرئاسة ، مثلنا ولكنهم رغم ذلك لا يفتئون يريقون الدماء في مجتمعاتهم فالقتل والجرائم وقتل الاطفال في بريطانيا ، والفساد المستشري والايدز والخمرة واللواطة صارت جزء من حياتهم. وهذا يعني اننا نقصد الجانب الاخلاقي للديمقراطية. ام يريدوننا ان ننادي بديمقراطية بدون اخلاق فتنقلب موازين مجتمعاتنا لتتحول الى مسارح الجريمة والقتل والأفيون.

لقد ارسى الاسلام من الشورى دعائم فلسفة للنظام السياسي لأن القرآن الكريم يفرض على المسلمين القيام بواجبات دينية يستحيل عليهم القيام بها والوفاء بحقوقها اذا هم لم يقيموا الاسلام ، فهي ليست ركناً دينياً وانما واجب مدني يصعب تنظيم شؤون المجتمع دون الوفاء بها وهذا يعني رفض العلمانية منهجاً واسلوباً(٥).

التغريب الثقافي

الثقافة كلمة تستعمل للدلالة على الرقي الفكري والادبي والاجتماعي للافراد والجماعات بما تحتويه من العقائد واللغة والقيم والمبادئ والسلوك والمقدسات، ولا يمكن ان تنشأ حضارة لأمة ما لم يكن وراءها ثقافة قوية تمتلك من الدين والقيم والاخلاق ما يسمو بها فوق الامم. وقد كانت حضارة المسلمين التي انتشرت خلال ثمانية قرون تعتمد على ثقافة اسلامية شاملة اساسها القرآن الكريم ولحمتها اللغة العربية التي استوعبت كل مستجدات الحضارة قديمها عند الشعوب التي ترجمت عنها وحديثها فيما استحدثه العلماء المسلمون من نظريات، ولتلك الحضارة تأريخ حافل بالامجاد

التي تعلي من شأن الانسان وتكرمه، وفيها تراث يحتضن عظمة هذه الامة ، وهي ثقافة قائمة على التوحيد الذي جمع بين الشرق والغرب.

ولما كانت الثقافة هي الوسيلة العظمى لايقاظ الفكر عند الشعوب والنهوض بها من الحضيض، ولما كانت الثقافة الاسلامية تتسم بالوضوح والتكامل والوسطية والقدرة على الحركة والتجاوب مع مختلف البيئات والعصور وقادرة على مواجهة الاخطار والغزو الخارجي وحركات التغريب، لكل هذا وجه الاستعمار سهامه منذ تطلع الى الاستيلاء على العالم الاسلامي - الى ثقافة هذه الامة فراح يغزوها في دينها ولغتها وتأريخها وتراثها وقيمها تشكيكاً وتشويهاً وقلباً للحقائق.

ولكي نعرف الغرب يجب النظر اليه باعتباره كياناً جغرافياً (اوربا) وصاحب ديانة (المسيحية) وله فلسفة هي (التنوير) وضمن اثنية (العرق الابيض) وداخل نظام اقتصادي (الرأسمالية) ورغم ما قدمه الغرب عبر مفكريه وفلاسفته من حقوق الانسان فانه ما زال في اطار المعنى الكلي لمفهوم التغريب الذي يقوم على الوعي بالذات (الأنا الفاعل) الذي يسعى بشتى الوسائل لاحداث تبعية الاخر لتحقيق ذاته ، فالتغريب يقوم على الامبريالية بوصفها نظاماً كاملاً من الاغتصاب يقوم على الاقطاع ومحو الثقافة واحداث التخلف(٦).

كانت الثقافة اذن احد اكبر الاصول التي راح الاستعمار يشوهها ويطمس معالمها ولهذا قبل ان يستقل جنده سفنهم للاحتلال كان يرسل المبشرين ليمهدوا الطريق الى غزو فكري ثقافي يشوه فكر تلك الامة وينشر نمطه الثقافي الحضاري ، وكان اول ما سددوا السهام اليه في البلدان الاسلامية المصدر الاول للثقافة الاسلامية وهو القرآن الكريم فزعموا انه من تأليف رسول الله (صلى الله عليه وآله) وانه نزل لجزيرة العرب وانه ادى دوره وانتهى وان تطور العصور قد تجاوزه وجعل افكاره بالية، وانه اذا اراد العرب والمسلمون الدخول في عصر الحضارة الغربية فما عليهم الا ان يبتعدوا عنه ويستجيبوا للمذاهب الفكرية الغربية التي تعبر عن روح حضارتهم. ثم كان ان ثنوا بلغة المسلمين ، اليست اللغة وعاء تلك الثقافة والدين فزعموا ان العامية افضل من الفصحى وان مفرداتها اكثر وان الفصحى قاصرة عن ان تعبر عن معطيات العلوم والحضارة الانسانية وزعموا ان كتابتنا بالحروف اللاتينية افضل، وقاموا بعد ذلك بنشر لغتهم حيثما حلوا ونزلوا. ورحل الاستعمار وبقيت اللغة كما هي لغة القرآن يقرأ بها المسلمون وذهب كل دعاة التغريب والعامية حتى من ابناء العروبة مسلمين او غير مسلمين وتبين هدف الاستعمار من كل تلك الدعوات وهو القضاء على هذا الدين وابنائه ..

ولكن الاستعمار لم يتوقف عن محاولة التغريب الثقافي لأبناء العروبة والاسلام وقد أيقن اهمية هدم الثقافة في اية دولة يريد احتلالها ولهذا فرض عندما سيطر على الامة العربية ثقافته باسلوب العنف وقام بدعم مؤسسات علمية تربوية عن طريق الارساليات لتخريج اجيال جديدة تعلي من قيم الغرب وتثير الشبهات حول الاسلام والمسلمين وقد عملت تلك المؤسسات - كما يقول انور الجندي - على صياغة عقولنا من شأنها ان تجعلنا تابعين او مستعبدين(٧).

والشي الذي يقلق مجتمعاتنا العربية والاسلامية ان هذه المجتمعات غير مسموح لها ان تنتج تاريخها الخاص كما تشاء وطبقاً لمعطيات تراثها وامكانيات حاضرها(٨). بينما يقرر د. محمد أركون ان للمجتمع العربي المسلم الحق في ان ينتج بكل حرية وان يبني قيمة الاخلاقية والدينية والثقافية التي يراها ملائمة له، ولكن الحقيقة لم يتح لأي مجتمع اسلامي ان ينتج تاريخه الخاص بواسطة قواه الداخلية وحدها من القرن التاسع عشر وحتى الان(٩).

ولما كانت ثقافة الغرب مستمدة من الفكر اليوناني الهليني القائم على المادية والوثنية والمسيحية وكان فكرنا الاسلامي قائماً على الجمع بين الدين والدنيا والمادة والروح، لذلك كان لابد من قيام التحدي بين الثقافيتين - ولكي يفرض المستعمر ثقافته بالقوة وليتجنب المواجهة قام باثارة قضايا لتغريب الثقافة الاسلامية فطرح قضية "ان الثقافة عالمية" ليصح له بحضارته القوية ان يستولي على العالم الاسلامي - بينما اكد الجميع ان المعرفة عالمية والعلم عالمي ولكن الثقافة قومية لأنها تستمد قيمها من جذور الامة ولغتها ودينها وتاريخها ، وتعد دعوته تلك بان العالم كله يجري نحو وحدة الفكر العالمي من اخطر دعوات التغريب والغزو الثقافي(١٠).

ومن هذه المغالطات التي روجها التغريب الثقافي انه لا فرق بين العقل العربي والعقل الغربي وان العرب والمصريين غربيون بالفكر لارتباطهم بالثقافة اليونانية القديمة (١١) وذلك للتعمية على الفوارق الذاتية والنفسية للامة الاسلامية. وقد عمد من اجل ذلك الى تربية كوادر من أبنائنا في جامعاته لاخراجهم من قيمهم وثقافتهم وليدفع بهم للسير ببلادهم نحو الاقليمية واخطار التحلل والالحاد. كما عمدت قوى التبشير والارساليات الى تحريف المقومات العلمية والحضارية للعرب بحيث كتب الكثيرون صفحات مزيفة مضللة عن التاريخ العربي والحضارة الاسلامية فانكروا على العرب والمسلمين الاصالة الفكرية واعتبروا كل ما ترجموه عنهم انما هو ترجمات علوم الحضارات القديمة وكان الهدف من ذلك هو اسقاط مرحلة هامة من مراحل التطور الحضاري الانساني باغفال دور الحضارة الاسلامية. وقد دافع علماء الغرب انفسهم عن المسلمين وردوا الاعتبار

لأبناء الاسلام واعتبروا الحضارة الاسلامية اعظم حلقة في ملف الحضارات الانسانية والتي تربى عليها ابناء الحضارة الغربية اليوم وبعد عصر النهضة فأقاموا على اصولها حضارتهم.

ولعل اخطر ما يهددنا اننا نتقدم نحو الحضارات الاخرى المتكاتفة ونحن ملل ونحل وقد ضرب اعداؤنا اعز ما يربطنا وهو ديننا عندما افرغوا استقلالاتنا من محتواها الحضاري فلم تتحل جيوشهم الداخلية عن أراضينا الا بعد ان عششت ثقافتهم البديلة في ضمائرنا (١٢).

وقد كان من أعمال التغريب الثقافي ان الاستعمار عمد الى تقديم قشور الحضارة الينا وحجب جوانب القوة عنا كما عمد الى إبعاد الفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية عن مجال الحياة ومناهج التربية وربى كوادر راحت تدافع عن ثقافته بحجة اننا لا يمكن ان نتطور الا اذا اخذنا بها ، على الرغم من ان الحضارة يمكن ان يتم نقلها بين الامم لأنها مادية، اما الثقافات فلا تنقل لأنها بنت بيئتها وقيمها ودينها فلها ثبات في الارض. كما ان الغرب نفسه عندما نقل حضارة المسلمين في الاندلس لم ينقل ثقافتهم وانما اخذ ما يناسب تطوره الحضاري، ولكن هؤلاء يأبون اذا ما ارادوا تزويدنا ببعض مظاهر حضارتهم الا ان نستورد ثقافتهم المادية الوثنية العارية من القيم والاخلاق والمتحللة من كل دين ليتم فسادنا وافسادنا.

واذا كان - البرت اشفيتسر - يرى "ان السبب في انحلال الحضارة وهو سبب اخلاقي لأن الحضارة تنهار اذا أعوزها العامل الأخلاقي حتى حيثما تكون العناصر الاخرى من الحضارة مزدهرة نشطة (١٣) فان تغريب الثقافة ونشر قيم الثقافة الغربية المنحلة سيؤدي بالضرورة الى فساد وانحلال المجتمع العربي والاسلامي ويتم سيطرة الغرب علينا عندئذ .. ومن تلك القضايا التي طرحها الفكر الغربي ليتم السيطرة على الثقافة الاسلامية:

١. مهاجمة الدين بصفة عامة ومحاولة وضع العلم في مواجهته كبديل. وقد فصل الغرب بين العلم والدين وبنى حضارته على ذلك. يقول محمد أركون: "ان تاريخ الاحتكاك بين الاسلام والغرب ما انفك يفرض علينا فكره المتمثل بأن دين محمد (صلى الله عليه وسلم) يقع خارج دائرته الثقافية"(١٤).
٢. القضاء على اللغة بنشر العامية.
٣. اثارة الشبهات حول التاريخ الاسلامي والدعوة الى اقليمية التاريخ للتنقيص من قيمة التاريخ الاسلامي عالمياً.

٤. طرح قضايا الفلسفات اليونانية الغربية بما تحمله من وثنيات وتعدد، فمرة يصدرون الينا القومية البعيدة عن الدين ومرة دعوى التحرر ومرة الوجودية والماركسية والفرويدية والعصرنة والحداثة والعقلانية ، ليتم تشويش الفكر الاسلامي واشغاله بقضايا جانبية بعيداً عن الدين.
٥. نشر القيم الغربية التي لم تنشر الا القلق والفوضى والانسان المشرد الضائع في الغرب وذلك ليتم نشرها بين المسلمين ليتهيأ لهم اخراجهم من قيمهم الخالدة.
٦. طرح قضايا تؤدي الى احباط همة المسلمين فمرة تراهم يقولون ان الاسلام هو مصدر ضعف المسلمين ومرة يصوبون سهامهم نحو الشريعة فيرونها شريعة محدودة قاصرة على جزيرة العرب مستمدة من القانون الروماني. وقد نفى ذلك علماؤنا واثبتوا ان القانون الروماني الذي وجد في القرن ١١ و ١٢ م قد سبقته القوانين الاسلامية بقرون وانه هو استمد بعض ما جاء فيها واعترف مؤتمر القانون الدولي المقارن بلاهاي والمنعقد في ١٩٣٢ بالشريعة الاسلامية كمصدر للتشريع والقانون المقارن مع استقلالها الكامل عن التشريع الروماني.

وعندما احكم الغرب سيطرته على العالم العربي والاسلامي قام بالسيطرة على الثقافة والتعليم والتربية ولجأ الى اقصاء القيم الاسلامية وعزلها او عرضها عرضاً مشوهاً مع ابعاد كل ما يتصل بها من جوانب القوة او البطولة التاريخية بغية تذويب الاجيال في الفكر الغربي.

كما جرى تغييب التراث الاسلامي بعرض جوانب الضعف والتشكيك والاضطراب فيهما(١٥) وقد استطاعت قوى الثقافة العربية والاسلامية ان تكشف زيف الشبهات التي طرحها الفكر الاوربي كما كشفوا اهداف النظام التربوي الغربي الذي فرض على مدارسنا وجامعاتنا والذي استهدف انشاء اجيال تتنكر لشخصيتها الاسلامية وتبغض دينها وتنظر الى تاريخها باحتقار وتعتبر حضارته قد اكل الدهر عليها(١٦).

لقد اراد الغرب ان يوحد العالم ولكن تحت سلطاته ولمصلحته والعالم لا يساس الا بالعدل والحب والاخاء، ولكن الغرب لجأ الى القوة الغاشمة محاولاً تفريغ هذه الامة من قيمها ودينها وثقافتها بحيث لم يسمح لها ان تنتج تاريخها الخاص بحريتها ، فهو من جهة يمارس هيمنته الاقتصادية والسياسية والثقافية على تلك الدول وهو من جهة اخرى يستهزئ بنظامها وقيمها لأنها لا تعرف كيف تتحرر من دينها ولغتها وعاداتها لتصبح حديثة على الطريقة الغربية. كل ذلك على الرغم من ان ثقافة اوربا مهددة بالخطر بل ان من العلماء من تنبأ باعادة انبعاث جديد للحضارات الشرقية، ويقصد حضارة الاسلام ويرى ان هذا سيؤدي الى افول المحور الثنائي الذي يتصرف بمقدرات الكون ومن هؤلاء العلماء بول كنيدي في كتابه "نشوء وسقوط الدول الكبرى" وهو يرى ان

الامراض التي فتكت بالامبراطوريات السابقة بدأت تنخر في جسد هاتين الدولتين (١٧) ويقصد روسيا وامريكا.

وهنا يبدو دور الثقافة الاسلامية كبيراً في تنبيه الاجيال التي احاطها الاستعمار بثقافته، لمحاولة اخراجها من شباكه اولاً ثم السير بها الى آفاق المعرفة والثقافة الاسلامية ليتم اعادة بناء قيمها ووجداناتها من خلال قيم الاسلام الخالدة.

٢. التغريب الاقتصادي

كان من اهم اسباب الحروب الصليبية الحالة الاقتصادية السيئة والركود الذي شل حركة الغرب فاضطروا الى الخروج والقيام بتلك الحملات الظالمة، اذ ان الجماهير في فرنسا وايطاليا -كما يقول د. جورج حداد -رأت انفراجاً لها في هذه الحروب بسبب الاحوال الاقتصادية والاجتماعية السيئة في بلادها(١٨).

ومن خلال تلك الحروب تعرف الغرب على مدنية المسلمين وحضارتهم ورقيهم فكان ان اعدوا للاستيلاء على الشرق ونهبه . وسرعان ما عملوا عقب النهضة الصناعية على التطور الاقتصادي لهم معتمدين على مانقلوه من علوم المسلمين في الاندلس وتم لهم بمخترعات العلم اخضاع الشعوب والاستيلاء على اوطانها وثرواتها، وخاصة البترول.

وصار البترول الهدف الاول الذي من اجله يشنون الحروب الظالمة لأنه عليه تدور مصانعهم في اوربا وامريكا وما زالوا يعبثون به ويخططون حتى فقد البترول قدرته على التأثير على الغرب كسلاح فعال استخدم في حرب تشرين عام ١٩٧٢ بل انه تم تغريبه ومحاصرته وحتى منعه من ان يصدر من كثير من الدول الاسلامية والعربية التي تقف من امريكا موقف المعارض، حتى صار بترولنا مغترباً في اراضينا ومهاجراً في نفس الوقت الى امريكا والغرب. وامسينا كمن يسبح فوق بحر من البترول ولكنه ما يزال يشحد لقمة الخبز من الغرب نفسه.

وعندما تكونت لدى الغرب الثروات الطائلة، تطلع الى بلدان الشرق وافريقيا وامريكا اللاتينية ، وقد ساعدتهم الثورة العلمية في استخراج خيرات الشعوب وموارها ، ولم يلجأوا عندئذ الى تغريب اقتصاد البلدان فحسب بل انهم ازالوا ممالك اسلامية كانت قائمة في افريقيا لها اقتصادها وحضارتها كامبراطورية غانا وامبراطورية مالي والسنغال(١٩).

ولم يستنزف هؤلاء خيرات الارض فقط وانما انصب تغريبهم على الانسان الفاعل نفسه في افريقيا. فقامت تجارة الرقيق بكل ما تحمل من ابعاد لا انسانية ليتم تغريب اقتصاد الافارقة بنقل الملايين

منهم الى امريكا كيد عاملة بدلاً من الهنود الحمر الذين تم ابادتهم او من اجل اخراج الذهب من امريكا الوسطى وساحل الذهب.

ومن مظاهر التغريب الاقتصادي ان الغرب تجاهل عن عمد الطلبات الداعية الى ضرورة ان تضع اوربا مهارات وتقنيات تحت تصرفهم (العالم الثالث). فقد رفضت امريكا بناء السد العالي بمصر حتى تقدم الاتحاد السوفيتي وعمل على انجازه. ومن هذا التغريب صورة اقرب الى القرصنة في وضح النهار فقد ذكر مسؤول صومالي حكاية بلاده مع المساعدات الامريكية الغذائية واننا ننتج الذرة ما يكفينا ولكن امريكا كانت تصر على ان نزرع البطاطا بدلاً من الذرة وهي عماد غذائنا ، وعندما كنا نصر على زراعة الذرة كانت امريكا تغرق السوق الصومالية في موسم الزرع والبذار وبأسعار اقل وذلك لكي يدع الفلاح ارضه بوراً وبهذا يضرب الاقتصاد الصومالي"(٢٠).

ومن هذا القبيل الزام بريطانيا مصر - يوم استعمارها لها - بزراعة القطن من اجل تشغيل مصانع النسيج في مانشستر ، والزام فرنسا الجزائر بزراعة الكرمة لتشغيل معامل الخمور، ولما قامت مصر بزراعة القطن وتصنيعه واقامت مصانع الزجاج وبخبرات اوربية، راى الغرب ان ذلك يتعارض مع احتياجات الرأسمالية الاوربية التي كانت تريد من مصر وحولها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وعلى يد الخديوي الى شحاد دولي حيث رهنت مصر باكملها لرجال المال الاحتكاريين الدوليين(٢١).

ومن هذه الصور القائمة ان الورش الحرفية كانت في الجزائر مزدهرة في مدن وهران وقسنطينة وتلمسان وغيرها غير ان وصول الاستعمار الفرنسي دمر تلك الصناعات الحرفية وترك الآلاف بلا عمل ، بل ان الغرب المستعمر لجأ الى ما هو ابلغ من ذلك ، لجأ الى ما عرف بالزراعة الواحدية في مستعمراته لاستغلال اقتصادها فكان ان فرض في ليبريا زراعة المطاط فقط والكاكاو في ساحل العاج والنخيل في داهومي وجنوب نيجيريا والقطن في السودان واوغندا. وقد جعلت تلك الزراعات الواحدية هاتيك البلدان تعتمد كلياً على ماتشتريه من البلدان الاستعمارية فصارت في قبضة المستعمر شاءت ام ابت(٢٢). وهذا اسلوب شيطاني من اساليب الاستعمار في تغريب اقتصاد الشعوب والتحكم به.

اقول ان هذا التمركز العنصري لدى الغربيين في محاولتهم السيطرة على كل شئ يهدر التاريخ الحقيقي لتقدم البشرية واسهام شعوبنا فيه، ويغفل هؤلاء عما تقدمه شعوب بحضاراتها المتنوعة من اثراء للحضارة الانسانية في الوقت الذي تصطدم فيه الحضارة الغربية مع تطلعات الشعوب التي

كانت تظن ان الغرب انما جاءها من اجل انقاذها وقد نسي هؤلاء ان تقدم البشرية رهن بالتفاعل الخلاق بين الحضارات المتنوعة التي يحترم بعضها بعضا(٢٣).

ومن خلال الاستعمار القديم ثم الحديث تمكنت الدول الرأسمالية من ادماج الاقتصادات المتخلفة للمستعمرات المستقلة حديثاً، تمكنت من ادماج اغلبها ضمن شبكة التقسيم الرأسمالي الدولي للعمل فكان ان عملت تلك الدول على احتكاره للتقدم التكنولوجي من اجل تثبيت الموقع المتخلف لبلدان العالم الثالث، ولهذا تخصص الرأسمالي الغربي في الانتاج الصناعي المتطور المتمثل في الصناعات التحويلية مقابل قيام البلدان المستعمرة على الانشطة الاولية كالزراعة والحراجة (الغابات) والصيد والصناعات الاستخراجية (المنجمية) بهدف تلبية حاجات الدولاب الصناعي الغربي الى المواد الخام (٢٤) واستمر هذا النمط من الصناعة من فجر النهضة الصناعية في القرن الخامس عشر الى اواسط القرن الثامن عشر وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥ .

ولم يكتف الغرب بذلك وانما عمل على نقل عدد من الصناعات الملوثة للبيئة من بلدانهم (كالبتروكيمياويات) والصناعات التي لم تعد لها الصدارة في السباق التكنولوجي، عملوا على نقلها الى البلدان العربية والخليجية واقيمت هذه الصناعات على اساس من تكنولوجيا اجنبية منقولة في غير وسطها الطبيعي دونما ارتباط بسائر الاقتصادات القطرية نفسها بل مرتبطة بالاقتصاد الغربي ككل. وقد قرأت في احدى مجلات - العربي - ان انتاج تلك المصانع تكدس ولم تجد له تلك الدولة اسواقاً للتصدير، كما انني سمعت من احدى الاذاعات ان دول الغرب فرضت ضريبة متصاعدة على استيراد انتاج تلك المصانع من دولة الامارات مما يعني قتل تلك الصناعات في مهدها وهكذا عملوا على تغريب اقتصادنا وفوق ارضنا وبأيدينا.

واضافة الى ما يفرضه النظام الاقتصادي العالمي في صفته الراهنة من تحديات وعقبات للعامل الثالث من خلال تقسيم العمل وعلاقة السيطرة والتبعية، فاننا نجد هناك تحديات اخرى تعمل على تغريب الاقتصاد الاسلامي ، منها المكانة الاستراتيجية والموقع الهام للوطن العربي وتنازع الغرب الرأسمالي على موارده الطبيعية ومضاعفة الصراع العربي الاسرائيلي مما يؤدي الى عرقلة أي سعي عربي دؤوب لاحراز ادنى قسط من التطور العلمي والتكنولوجي. يقول د. حقي بريوني: "لأن الاحتكارات الكبرى تسيطر على المجتمع في الغرب لذا كان لها اليد الاولى في عملية رسم القرار السياسي والاقتصادي خصوصاً في التعامل مع الدول النامية. فالغرب يعامل هذه الدول معاملة غير انسانية مبنية على تحكم فوق امبريالي فهو يصدر اليها تقنيته البدائية غير المتطورة

لامتصاص المواد الاولية الازمة للصناعة ومصادر الطاقة مستهدفاً تعويق قيام صناعات اساسية مصنعة في دول العالم الثالث لتبقى الاوضاع كما هي ، الغرب ياخذ الموارد ويصنعها ثم يبيعها لتلك الدول باسعار خيالية(٢٥).

وهكذا فالمحتوى التقني الاقتصادي للحضارة الغربية والذي بهر الناس يقم دون استيلاء الغرب على موارد الشعوب الاخرى (في امريكا الشمالية واستراليا وافريقيا والشرق الاوسط) والاستيلاء على الموارد البشرية (الرقيق في افريقيا للعمل في المناجم والمستعمرات). وبهذا الاحتواء والسيطرة على اقتصادات الشعوب العربية والاسلامية والشعوب الاخرى استطاع الغرب وامريكا احتواء تلك الدول والسيطرة على قرارها السياسي والتدخل في كافة شؤونها. وكلما تقدم الغرب زاد تخلف دول العالم الثالث لأن المعادلة مرسومة بحيث تظل تلك الدول في مقام التخلف والتبعية الاقتصادية للاستعمار. واذا كان الانسان هو باني الاقتصاد فان ما قام به الغرب الاستعماري من عملية بيع الرقيق يعد ابشع عمل يقومون به من اجل شل اقتصاد تلك الشعوب. يقول د. والتر رودني: "هناك شركات تجارية استعمارية مخضبة ايديها بدماء الافارقة لمشاركتها في تجارة الرقيق. فبعد ان حقق تجار فرنسيون من بوردو ثروات من تجار الرقيق الاوربية قاموا بتحويل تلك الاموال للتجارة في الفول السوداني في السنغال وغامبيا منذ منتصف القرن ١٩ (٢٦).

وقد كان ابشع ما أقدم عليه الاستعمار في ذلك هو ما سجله التاريخ للبرتغال فيما يتعلق بممارسات غير انسانية تدينهم باستعباد البشر والذي ادينوا به من قبل الرأي العام العالمي. اذ ان هؤلاء البرتغاليين المستعمرين لم يقتصروا في استخدام الرقيق للسخرة من اجل مواطنيهم فقط بل لجئوا الى تصدير هؤلاء الرقيق وتأجيرهم في دول اخرى، فقد قاموا بتصدير الانغوليين والموزنبيقيين الى منجم جنوب افريقيا للعمل من اجل الكفاف، مقابل مبلغ يدفعه رأسماليوا جنوب افريقيا للحكومة البرتغالية كل عام"(٢٧).

وما تزال حملة الغرب وامريكا على اقتصاد العالم العربي والاسلامي بمحاولته منع أي تطور صناعي او زراعي يؤدي الى تقدم تلك الدول ولقد عيينا ونحن نسمع عن مؤتمرات عربية تنعقد وتؤكد على زراعة السودان لملايين من الهكتارات والتي تكفي العالم العربي بأجمعه ثم ما نلبث ان نسمع عن توقف تطبيق ذلك، ويجهض المشروع لأسباب علمها عند الله في كتاب - بل انني قرأت في كتاب للدكتور احمد شلبي عن (السادات وعهده) ان امريكا اخذت عليه تعهداً بالا تزرع مصر القمح كي تظل مصر تحت رحمة قمح امريكا. وما خضوع مصر اليوم لامريكا

والصهيونية الامن اجل هذه الغاية لأن اية مخالفة من مصر لأمريكا تعني توقف بواخر القمح الامريكية من الوصول الى ميناء الاسكندرية.

ان الامة التي تأكل مما يزرعه غيرها لا تستأهل الحياة ولا تستطيع الحياة الا تحت مظلة الذل والهوان. ولو نظرت لوجدت ان كل الدول العربية والاسلامية تستجدي رغيف الخبز فهل نعي هذا الدرس قبل فوات الاوان. ان صناعة القرار السياسي عند كل دولة صار اليوم رهيناً بقوة اقتصادها فهل نستطيع ان يكون لنا اقتصاد قوي لنعمل على صنع قرارنا السياسي بأنفسنا.

وما الحلول التي توصلت اليها الامم المتحدة اليوم وبقيادة القطب امريكا من فرض الحصارات الاقتصادية على دول المسلمين وبالاخص ليبيا وايران والعراق ودول العالم الآخر كوبا وكوريا وغيرهما الا من قبيل هذه الحب الجديدة التي تنبه اليها الاستعمار والتي لا تكلفه دبابات ولا طائرات ولا قتلى من ابنائه. انها الحرب الاقتصادية المعلنة على الشعوب، حرب التجويع والتهديد بالرغيف وهي حرب صامتة ساخنة في نفس الوقت. وهي حرب ظالمة لا تدل الا على ان الانسان الغربي غداً وحشاً متمرساً في آخريات القرن العشرين والشعوب الاستعمارية الرأسمالية لا يهمها تأمين مصالح الانسان على الارض بقدر ما يهمها ان تتخم جيوبها وبطونها.

الهوامش

١. كاتب اسلامي من فلسطين.
٢. المدخل الى تاريخ الحضارة، د. جورج حداد. مطبعة الجامعة السورية/١٩٥٨ ـص ٤٨١.
٣. المرجع نفسه ص ٥٠ .
٤. انظر مجلة الوحدة، العدد ٤٨ ص ٢٠٧ . انظر تحليل كتاب - "أزمة المجتمع العربي"/د.سمير امين مراجعة جورج مصري.
٥. المرجع نفسه ص ٢٠٧ .

٦. مجلة العربي، العدد ٤٢ ، انظر تحليل كتاب "تغريب العالم" سيرج لاتوش عرض سعيد كزاوي، ص ١٩٧ .

٧. الثقافة العربية لأنور الجندي، دار الكتاب اللبناني، ط١، عام ١٩٨٢ .

٨. انظر مقالة هاشم صالح "الفكر العربي المعاصر ومسالة الحركات الاصولية" في مجلة الوحدة، العدد ٩٦، ص ٧٦.

٩. المقال نفسه ص ٧٦ .

١٠. الثقافة العربية ص ١٢ .

١١. المصدر نفسه ص ٢٢٩ .

١٢. انظر مجلة النور، العدد ٥٠، ص ٥ ، تحليل كتاب الاسلام وصراع الحضارات/د.احمد القديري.

١٣. "الثقافة العربية" ، انور الجندي، ص ٢٨٠ .

١٤. مقالة "الحركات الاسلامية قراءة أولية". د. محمد أركون ترجمة هاشم صالح في مجلة الوحدة، العدد ٩٦، ص ١٢ .

١٥. انظر الثقافة العربية ص ٢٩٩ .

١٦. المرجع نفسه، ص ٢٠٠ .

١٧. انظر مجلة "كلية الدعوة" ، ليبيا، طرابلس، العدد ٨، لعام ١٩٩١، مقال دور الجامعات العربية والافريقية، د. محمد علي الصلبي، جامعة النجاح - نابلس .

١٨. انظر المدخل الى تاريخ الحضارة ، د. حداد، ص ٤٧ .

١٩. انظر اوربا والتخلف في افريقيا ص ٨٦ للدكتور والتر رودني - ترجمة د. احمد القصير .

٢٠. مجلة الوحدة، العدد ٨٤ .

٢١. اوربا والتخلف في افريقيا ص ٢٠٢ . سلسلة عالم المعرفة ، العدد ١٣٢ - الكويت.

٢٢. المرجع نفسه ، ص ٢٤٤ .

٢٣. "دراسات في التنمية والتكامل الاقتصادي العربي" سلسلة كتب المستقبل العربي، بيروت حزيران ١٩٨٢ م ، ط١، مقالة د. اسماعيل صبري عبد الارض ٦٩-٧٠ .

٢٤. مجلة الوحدة ، العدد ٨٦ ، مقال د. محمد عبد الشفيع عيسى ، ص ٤١ .

٢٥. مجلة الوحدة، العدد ٨٦ ، ص ٥٩ مقالة د. حقي بريوني .

٢٦. انظر اوربا والتخلف في افريقيا .ص ٢٢٥ .

٢٧. المصدر نفسه ، ص ٢٤٣ .